

رؤى في الإصلاح الثقافي



رؤى في الإصلاح الثقافي

فوزي آل سيف



أطراف للنشر والتوزيع
هاتف/فاكس: ٨٥٤٩٥٤٥ (٣) ٩٦٦+
جـوال: ٥٠٥٨٦٨٧٧١ - ٩٦٦+
القطيف - شارع القدس
ص.ب. ٦١٢١٥ القطيف ٣١٩١١
المملكة العربية السعودية
E-mail: atya-pd@hotmail.com



الطبعة الأولى
1428 هـ - 2007 م

جميع الحقوق محفوظة



أطيف للنشر والتوزيع
هاتف/فاكس: ٨٥٤٩٥٤٥ (٣) ٩٦٦+
جـوال: ٥٠٥٨٦٨٧٧١ - ٩٦٦+
القطيف - شارع القدس
ص.ب. ٦١٢١٥ القطيف ٣١٩١١
المملكة العربية السعودية
E-mail: atya-pd@hotmail.com



المحتويات

مقدمة.....

قضايا الإصلاح الثقافي

الإصلاح الثقافي خطوة البداية

المعرفة أفضل العبادة.....

القرآن يفكك الأصول الثقافية الخاطئة.....

من مظاهر التخلف الثقافي في الأمة

أولاً: فقر الإنتاج العلمي والفكري.....

ثانياً: شيوع فكر الخرافة والأسطورة.....

ثالثاً: الاحتفاء بالماضي والافتخار به.....

من أسباب التخلف الثقافي

الجانب التربوي.....

أبناؤنا والعلاقة مع الكتاب.....

أثر الاستبداد في تخلف الأمة

الجانب السياسي.....

مأساة الفكر مع الاستبداد.....

إشكالات أمام حرية الكتاب.....

كيف نحصل على جيل قارئ

- المرحلة الأولى: بيئة البيت
- المرحلة الثانية: بيئة المدرسة
- المرحلة الثالثة: بيئة الأحياء والمناطق

الخرافة والتأمل العقلي

..... كيف نتعامل مع ظواهر الخرافة في المجتمع؟

1. عدم تحكيم العقل.....
2. التلقين.....
3. استنفاد الأسباب الظاهرية.....
4. إحالة على المجهول.....
5. مجتمع القمار والحلول السهلة.....
6. الخلط بين الغيب وبين الخرافات.....
7. عدم الرجوع إلى أهل الاختصاص.....

..... آثار انتشار الخرافات ونتائجها السلبية

1. البعد عن حالة الإنتاج.....
2. تشويه صورة الإيمان بالغيب.....
3. سوء استغلال بعض الأفراد للضحايا.....
4. تشكل طبقة من الأفراد الطفيليين.....

..... قضايا ثقافية في منهج أهل البيت

1. مقدمات في منهج التعامل مع الروايات.....
2. الفهم الحرفي والفهم العرفي للروايات.....
3. تعدد مقامات النبي وأثرها في فهم النصوص.....
4. عرض الروايات على القرآن والقيم العامة.....

قضايا ثقافية في منهج أهل البيت

مقدمات في منهج التعامل مع الروايات

التفاعل بين الثقافة والسلوك

نقاط في منهج التعامل مع النصوص

الأصول الروائية مواد خام ليست ثقافة جاهزة

التفريق بين الدين والمعرفة الدينية

آثار الافتتاح من غير منهج

الفهم الحرفي أو العرفي للروايات

ملاحظة الجانب الزمني في الروايات

خير لباس الزمان لباس أهله

تعدد مقامات النبي وأثرها في فهم النصوص

1. مقام النبوة والتبليغ

2. مقام القضاء بين الناس

3. موقع الولاية وإدارة المجتمع

التهديد بإحراق من تأخر عن الجماعة

جواز الفرار من الوباء

أخرجوا المشركين من جزيرة العرب

قضية تحليل الخمس

عرض الروايات على القرآن والقيم العامة

أصول السنّة في القرآن

أحاديث رؤية الله

هل يورث الأنبياء؟.....
العرض على القيم العامة في الدين.....
لن تبلغوا مدّ أحدهم!.....
غيبة المسلمين المخالفين في المذهب.....
علم الأئمة بالغيب.....
المرأة شر؟.....

مُقَدِّمَةٌ

تعيش أمتنا العربية والإسلامية كما هو مشاهد وضعاً متخلفاً، في أكثر من صعيد.. فهي تقبع في ذيل الأمم المتحضرة وتحتل موقعها في خانة الأمم المتخلفة والتي تسمى مجاملة بالنامية. وفي داخلها لا يحتاج الباحث إلى أكثر من الالتفات إلى ما حوله، ليرى آثار التخلف ومظاهره في مختلف الصعد ظاهرة.

ففي المجال السياسي لا تزال الأمة تعيش ضمن أنظمة سياسية لا تنتمي إلى هذا العصر وبعض شعوبها تحيا غائبة تماماً عن واقعها السياسي (تكترش من أعلافها وتلهو عما يراد بها)، كما لم هذه الشعوب تحقق تقدماً في صراعها الأساس، بل تتراجع يوماً بعد يوم وأمامك القضية الفلسطينية شاهد فما كان يرفضه المسلمون بقوة في السابق أصبحوا يتوسلون لنيل بعضه اليوم فلا يجدونه!

وفي المجال الاقتصادي تلاحقك صور الفقر والبطالة وضعف الإنتاج، ويتمثل بين عينيك عناوين التبعية بالرغم من مقومات الثراء والغنى الموجودة فيها، في البر والبحر والموقع، وغير ذلك مما يعلمه الجميع.

وإذا كانت المجال الاجتماعي في السابق يشفع لهذه الأمة بعض الشيء حيث لم تصل مشاكل الحداثة وآثار العولمة، فبقي أثر التوجيهات الأخلاقية والأنماط الاجتماعية التقليدية صائناً لقسم من القيم، وحافظاً لأبناء المجتمع من الانهيار، فإن هذا بدوره قد تراجع على أثر الانفتاح على الثقافات والعادات الذي جاء به عولمة التواصل في هذا الزمان.

ولهذا ينبغي التساؤل عما هي الحاجة الأكثر إلحاحاً بالنسبة

لأمتنا لكي تتجاوز وضعها السيئ الراهن؟

ربما يسرع البعض إلى الإجابة بأن التخلف لما كان شاملاً في كل النواحي، فنحن نحتاج إلى كل شيء؟ إن ذلك يشبه قرية منكوبة فتحتاج إلى الشارع والمستشفى وقنينة الماء والمخبز وهكذا باقي الأشياء، لا تستطيع أن تستثني شيئاً.

وهذا الجواب بالرغم من صحته إلا أنه لا يمنع من السؤال بأنه ما هو الأكثر إلحاحاً في تلك القرية؟ إن حاجة الأمة متعددة فهي تحتاج إلى التخصص العلمي، وتحتاج إلى السلاح المتطور، وتحتاج إلى المصنع المنتج وتحتاج إلى غير ذلك..

لكننا نعتقد أنها تحتاج قبل كل ذلك وبعده وأثناءه إلى البصيرة والمعرفة والثقافة.. وهذا يعني أنها تحتاج إلى نظرية ترسم الطريق الصحيح في حياتها، وتحتاج خريطة تعلمها من أين تبدأ.. وتحتاج بالتالي إلى إصلاح ثقافي بحيث لو لم تحصل على هذا الجانب ولم تسع فيه، لم ينفعها ما حصلت عليه!

ضمن هذا الإطار تأتي هذه الصفحات لكي تعالج هذه المسألة في القسم الأول من الكتاب، بينما يتناول القسم الثاني قواعد في فهم التراث من النصوص، والذي لا يزال يؤثر تأثيراً مباشراً وكبيراً على حركة الأمة، وتتأثر بطريقة فهمه اختياراتها في الحياة، مساهمة من المؤلف في تلمس طريق التغيير والإصلاح الثقافي في الأمة وهي - في الأصل - محاضرات سبق أن ألقيت في موسم رمضاني سابق، أرجو أن تكون إشارة إلى الطريق الصحيح، فإن كانت فله الحمد وإلا فأرجو أن لا يفوتني أجر النية الصالحة.

فوزي آل سيف

تاروت - القطيف - شرق السعودية

1428/4/29هـ

الإصلاح الثقافي خطوة البداية

نعم الله في الكون على قسمين:

القسم الأول: متاح لكل الناس من دون حاجة لمواصفات خاصة أو جهد استثنائي فنعمة الهواء مثلاً لا تحتاج إلى مواصفات خاصة أو جهد استثنائي يصرفه بل يكفي أن تكون أجهزة التنفس عند المرء صالحة حتى يستطيع أن يستفيد من هذا الهواء الذي جعل لجميع الناس وهكذا الحال بالنسبة إلى نور الشمس. وأكثر النعم الإلهية المادية هي من هذا القسم لا يختص بها بشر دون بشر ولا فئة دون أخرى.

- وهناك قسم آخر من النعم الإلهية - وهي غالباً الأمور المعنوية والمعرفية والعلمية - هذه لا تتوفر لكل الناس وإنما تحتاج إلى بذل جهد وأن يقوم بقصدها ويخطط لها حتى يحصل عليها. مثل الحكمة.

الحكمة⁽¹⁾ - كما ورد عن الإمام أبي جعفر محمد بن علي الباقر عليه السلام حيث قيل له: ما هي الحكمة التي يؤتيها الله من يشاء وإن من يؤتاها فقد أوتي خيراً كثيراً، فقال: - (هي المعرفة)⁽²⁾ أي الثقافة، والبصيرة، والفهم.

(1) ذكر ابن منظور في لسان العرب أن: الحكمة عبارة عن معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم. ويقال لمن يُحسن دقائق الصناعات ويُتقنها أنه حكيم.

(2) ميزان الحكمة 672/1.

هذه لا تتوفر لكل الناس كما يتوفر الهواء والماء ونور الشمس.
وإنما تحتاج إلى مقدار من الجهد ومقدار من القصد ولذلك فإن الذي
يؤتاها ليس كل إنسان وإنما من يشاء الله ويشاء هو.

﴿... وَمَنْ يُؤْتِ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا...﴾ ليس كل
شيء يُعطاه الإنسان هو خير بالضرورة، فأحياناً يعطى شيئاً فتكون
عاقبته مرّة، لكن بعض الأشياء يؤكد القرآن الكريم بأنها خير ومنها
الحكمة.

والحكمة خير، ولكن ليست أي خير فإن المال قد عُبر عنه بأنه
خير، قال تعالى: ﴿... إِنَّ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ...﴾ ولكن الخير الكثير
ليس المال وإنما الحكمة، والكثير كثرة إلهية يختلف عن الكثير عند
الناس فالكثرة نسبية لأن الكثير عندي لا يكون كثيراً عندك، بل
يختلف الكثير بحسب السعة بين الناس فإذا عبر الله سبحانه وتعالى عن
شيء بأنه كثير مع أن الله لو جُمع ما في الدنيا وما في الآخرة لما كان
يعدل جناح بعوضة فإذا كان الله يقول إن: ﴿... وَمَنْ يُؤْتِ الْحِكْمَةَ
فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا...﴾ يتبين أن هذه الحكمة هي كنز عظيم
بالنسبة للإنسان قال تعالى: ﴿... وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾.

إذن.. الحكمة: هي المعرفة ونحن حديثنا يتناول جانب الإصلاح
الثقافي في الأمة كمقدمة لنهوضها.

فإذا أردنا في أمتنا الإسلامية أن نهض فأول خطوة ينبغي أن
تسلك هي الإصلاح والتغيير الثقافي.

ولهذا ينبغي أن ننظر إلى ما هو موجود مما يصنف ضمن
الثقافة الإسلامية، فنقوم بنخله وتصفيته، وحذف الأوهام منها،
والخرافات، كما ينبغي إصلاح الأفكار الخاطئة التي تدعو إلى
التواكل والكسل أيضاً.

وهذا ضروري في النهضة لأن حركة الناس وسعيهم رهينة ثقافتهم وأفكارهم، فلو تساءلنا ما هو الفرق بين المجتمع الغربي الأوروبي المتقدم وبين المجتمع الشرقي المسلم المتأخر بحيث صار أولئك متقدمين ونحن متخلفين؟

هل السبب في العنصر حيث بعضهم من الآريين وهذا الشرق المسلم من العنصر السامي؟ أو أن السبب راجع إلى اللون؟ أو المناخ والجغرافيا؟

كلا إنما المختلف هو سعيهم وعملهم وحركتهم بناء على اختلاف ثقافتهم عن ثقافتنا وفكرهم عن فكرنا. وعندما نقول نختلف ثقافياً لا يعني ذلك أن كل ما عندهم خاطئ أو كل ما عندنا صحيح؟ ولا العكس.

ومن الحكمة أن ننظر إلى ما لدى الآخرين من علم ومعرفة وحكمة فنستفيد منها. إنكم ترون الآن فكرة باطلة في مجتمعاتنا الإسلامية وهي أنه ما دام الشيء الكذائي قد قاله الغربيون فلا نريده. الإصلاح السياسي لا نريده لأنه دعوة قادمة من الخارج!! هذا خلاف للمبدأ الديني القائل أن الحكمة ضالة المؤمن أتى وجدها أخذها سواء كانت من الخارج أو من الداخل.

إذن أول خطوة هي خطوة معرفية وثقافية: لا بد من إصلاح الثقافات والمعارف حتى يتغير السلوك ويتغير السعي والحركة. فلو أخذنا بعض الأمثلة الفردية من تاريخ المسلمين، لرأينا أن الذي صنع التغيير في ظاهر هؤلاء هو التحول الذي حدث في باطنهم وثقافتهم.

عمار بن ياسر هذا الصحابي الجليل كان في السابق عبداً من العبيد يُباع ويُشترى بمقدار قليل من الدراهم سعيه غير منتج له، حاضره غير معروف وكذا مستقبله، لكنه عندما ينتقل هذه النقلة

الفكرية والإيمانية يصبح كما ذكره رسول الله ﷺ: جلدة ما بين
عينيه (عيني الرسول) (1) وأنفه).

ما الذي تغير فيه هل زاد يداً أو نقص رجلاً؟ هل صب محلول
كيميائي على بدنه؟ كلا! إنما تغير فكره وحكمته. كان يجيا بثقافة
غير هادفة فأصبح يحمل ثقافة هادفة، كان كل دائرته في أن يرعى
غنم سيده وأن يرجع لكي يشبع بطنه فأصبح إنساناً يحمل مسؤولية
تغيير نفسه وتغيير واقعه، وينتمي لعقيدة ويضحى من أجلها، ويفكر
في هداية البشر. هذا الأصل الثقافي الذي تغير وتبدل فيه رفع منزلته
وغير حياته وبدل سعيه وحركته.

الشيء الوحيد الذي تغير أنه جاء وقرأ القرآن فرأى فيه:
﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ (2).

صار يحمل هدفاً في حياته وتغير سعيه بعدما صار يعتقد أنه
﴿وَقَفَّوهُمْ أَنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾ (3) أصبح يختلف عن نظيره الذي يرى
أنه ﴿... مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا
الدَّهْرُ...﴾ (4).. الفارق هو الأصل الثقافي والمعرفي الذي يعتمد عليه
وهذا الأصل الثقافي سينشأ منه خير كثير.

المعرفة أفضل العبادة:

لذلك كانت المعرفة والثقافة أولى وأفضل حتى من العبادة
كيف ذلك؟

(1) السيرة النبوية لابن هشام 345/2.

(2) المؤمنون: 115.

(3) الصافات: 24.

(4) الجاثية: 24.

المسلمون يعتقدون أن العقائد هي الأصول وهي من أفعال القلوب والجوانح (كما يقولون) والعبادات هي الفروع وأفعال الجوارح. والأصول مقدمة على الفروع. في الأصول لا يُطلب حركة يد أو رجل بل حركة عقل: أن يعتقد الإنسان بالله بأن يعرف ربه ومبدأه ومنتهاه.. أن يعرف ما يُراد منه وبالتالي ما يقربه من الله وما يبعده عنه، وأن يعرف عما سئسأل.. هذه العقائد كلها معارف⁽¹⁾ وهي تتقدم على العبادات. في العبادة تحتاج إلى حركة في الصلاة من ركوع وسجود وقيام، وإلى معاناة بدن في الصيام، وحركة جوارح في الحج، لكن المعارف والثقافة لا تحتاج هذه الأمور إنما تحتاج تحريك عقل وفكر.

في الحديث عن الإمام الصادق جعفر بن محمد عليه السلام أن رجلاً سأل الإمام: يا أبا عبد الله أخبرني عن أحب الأعمال وأفضلها عند الله؟ وهنا قد يتبادر إلى الذهن إن أحب الأعمال الصلاة لأنها لو قُبلت قبل ما سواها، وربما يقول أحدهم إن أحب الأعمال الجهاد باعتباره باباً من أبواب الجنة. بينما كان جواب الإمام (ما أعلم شيئاً بعد المعرفة أحب من الصلاة)⁽²⁾ يعني أولاً المعرفة أحب إلى الله ثم بعد ذلك تأتي الصلاة.

(1) في الكافي - الشيخ الكليني، ج 1، ص 50: علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن القاسم بن محمد عن المنقري عن سفيان بن عيينة قال سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: وجدت علم الناس كله في أربع: أولها أن تعرف ربك والثاني أن تعرف ما صنع بك والثالث أن تعرف ما أراد منك والرابع أن تعرف ما يخرجك من دينك.

(2) الكافي - الشيخ الكليني، ج 3، ص 264.

- حدثني محمد بن يحيى، عن أحمد بن محمد بن عيسى، عن الحسن بن محبوب، عن معاوية بن وهب قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن أفضل ما يتقرب به العباد إلى ربهم وأحب ذلك إلى الله عز وجل ما هو؟ فقال: ما أعلم شيئاً بعد المعرفة أفضل من هذه الصلاة، ألا ترى أن العبد الصالح عيسى ابن مريم عليه السلام قال: «... وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا».

وفي حديث: عن رسول الله ﷺ: "أفضلكم إيماناً أفضلكم معرفة".

وعن بعض المعصومين (عليهم السلام): بعضكم أكثر صلاة من بعض، وبعضكم أكثر حجاً من بعض، وبعضكم أكثر صدقة من بعض، وبعضكم أكثر صياماً من بعض، وأفضلكم أفضل معرفة⁽¹⁾.

القرآن يفكك الأصول الثقافية الخاطئة:

لأهمية الموضوع وجدنا القرآن الكريم يفكك الأصول الثقافية والمعرفية التي تحرك الكفار والخاطئين في حياتهم، ولذلك اهتم بذكر أقوالهم ومتبنياتهم الفكرية التي يظهرونها على شكل أقوال أو مناقشات، فلو تتبعنا كلمة (قالوا، يقولون) لوجدناها كثيرة في آيات القرآن، لا لأن هذه تحمل قيمة معرفية صحيحة، وإنما لأنها خلفية حركتهم، فهو يسعى لتفكيكها وبيان خللها، والرد عليها.

ولو لاحظنا أن القرآن عادة لا يتوقف كثيراً لمناقشة تفاصيل أخطائهم وانحرافاتهم العملية، وكيف كانوا يشربون الخمر أو يزنون.. وإنما الغالب أنه يتعرض إلى الأصول الثقافية الباطلة التي تدعو إلى عمل باطل فيناقش تلك الأصول الثقافية.

مثلاً يركز على الرؤية العنصرية الموجودة عند بعض اليهود والنصارى والتي تبرر لهم الأعمال الباطلة يعالجها وينقدها ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾⁽²⁾.

(1) ميزان الحكمة - محمد الريشهري، ج 3، ص 1870.

(2) البقرة: 111.

هذه الفكرة تعبر عن أصل عنصري وشوفيني باطل. وتدعوهم إلى ممارسات لا أخلاقية تجاه من لا يشترك معهم في أفكارهم «وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بَدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا...» لماذا يقوم بهذا العمل مع أنه خيانة واضحة؟

«... ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ»⁽¹⁾ يقول هؤلاء: إن المسلمين ليس لهم حق عندنا لا يتساوون معنا نحن لنا حق عليهم وهم ليس لهم حق علينا لماذا ليس لهم حق عليكم؟ لأنهم أهل النار ونحن أهل الجنة حسب ما يزعمون.

نلاحظ أن القرآن الكريم يعالج هذا الأصل الثقافي الباطل وينتقده لأنه ينتج أعمالاً وسلوكيات باطلة.. (هذه الآية تبين منطقهم في أكل أموال الناس، وهو قولهم بأن «لأهل الكتاب» أفضلية على «الأميين» أي على المشركين والعرب الذين كانوا أميين غالباً أو أن المقصود كل من ليس له نصيب من قراءة التوراة والإنجيل، لذلك يحق لهم أن يستولوا على أموال الآخرين، وليس لأحد الحق أن يؤاخذهم على ذلك، حتى أنهم ينسبون إلى الله تقرير التفوق الكاذب.

لا شك أن هذا المنطق كان أخطر بكثير من مجرد خيانة الأمانة، لأنهم كانوا يرون هذا حقاً من حقوقهم، فيشير القرآن إلى هذا قائلاً:

«... وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ».

(1) آل عمران: 75.

هؤلاء يعلمون أنه ليس في كتبهم السماوية أيّ شيء من هذا القبيل بحيث يجيز لهم خيانة الناس في أموالهم، ولكنهم لتسويغ أعمالهم القبيحة راحوا يختلقون الأكاذيب وينسبونها إلى الله.

هذه الآية تبين منطقهم في أكل أموال الناس، وهو قولهم بأن «لأهل الكتاب» أفضلية على «الأميين» أي على المشركين والعرب الذين كانوا أميين غالباً أو أن المقصود كل من ليس له نصيب من قراءة التوراة والإنجيل، لذلك يحقّ لهم أن يستولوا على أموال الآخرين، وليس لأحد الحق أن يؤاخذهم على ذلك، حتى أنّهم ينسبون إلى الله تقرير التفوّق الكاذب.

لا شك أنّ هذا المنطق كان أخطر بكثير من مجرد خيانة الأمانة، لأنّهم كانوا يرون هذا حقاً من حقوقهم، فيشير القرآن إلى هذا قائلاً: **«... وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ».**

هؤلاء يعلمون أنه ليس في كتبهم السماوية أيّ شيء من هذا القبيل بحيث يجيز لهم خيانة الناس في أموالهم، ولكنهم لتسويغ أعمالهم القبيحة راحوا يختلقون الأكاذيب وينسبونها إلى الله⁽¹⁾.

مثال آخر: «الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ...»
وهم قوم ظلوا ضمن المجتمع القرشي المشرك، ولم يهاجروا، ونظراً للضغوط التي كانت تمارس بحقهم فقد انزلقوا إلى مناصرة الكفار مرغمين، وظنوا بأن الاستضعاف عذر مقبول في هذا، فحين تتوفاهم الملائكة وهم بقائهم في المجتمع ذاك يكونون قد ظلموا أنفسهم يُسألون فيمّ كنتم؟ لماذا حدث عليكم هذا الظلم وهذا الاضطهاد؟ لماذا حقوقكم مصادرة؟

(1) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل 560/2.

لديهم تبرير معتمد على أصل ثقافي باطل ﴿... قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ...﴾ يعني جعل علينا الاستضعاف.. الله جعلنا هكذا!! هل يقبل هذا الكلام؟ هل يقبل الأصل الخاطيء؟ نقول لهم: كلا ﴿... أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾⁽¹⁾.

فأنت تلاحظ مثلاً هذه الأصول الثقافية الخاطئة تنتج سلوكاً خاطئاً.. لهذا تغيير الأمة يبدأ من الإصلاح الثقافي.

أنقل لك قضية واقعية فقد اتصل أحدهم يسأل: القناعة هل هي مطلوبة أو غير مطلوبة؟ أجبته: مطلوبة وهي إحدى الصفات الأخلاقية.

قال: إذا كان كذلك فلماذا تتحدثون عن أن الإنسان ينبغي أن يصعد ويرتقي سواء في أموره الأخروية أو الدنيوية؟ هذا خلاف القناعة.

وكان لنا لقاء تبين فيه أنه يعمل في إحدى الوظائف براتب متواضع جداً، وقد قبل هذا الوضع بناء على أن القناعة كنز لا يفنى.. أوضحت له فيه خطأ هذه الفكرة.. القناعة - وإن كانت مطلوبة - إلا أنه ليس هذا محلها.

قال: كيف؟

قلت له: عندنا مفهومان: علو الهمة وهذا أصل من الأصول الأخلاقية التي وردت كثير من الروايات⁽²⁾ بشأنها وقد ذكر القرآن

(1) النساء: 97.

(2) منها ما عن أمير المؤمنين: قدر الرجل على قدر همته. وعنه: كن بعيد الهمة إذا طلبت؛ ولا شرف كبعده الهمة.

في أدعية المؤمنين طموحاً عالياً للمؤمن ﴿... وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾⁽¹⁾، ليس طموح هؤلاء أن يكونوا من المتقين بل أئمتهم! وهكذا ما ورد في الدعاء الذي يعلم الداعي علو الهمة (واجعلني من أحسن عبيدك نصيباً عندك)².

يقابل علو الهمة صغر النفس ودنو الهمة وهو خلق مذموم.

أما الذي يقابل القناعة فهو الطمع ومعناه (مدّ عين الإنسان إلى ما لدى الغير) بأن لا يكتفي بما عنده وإن كثر وإنما يحاول الاستيلاء على ما لدى غيره وإن قل.. هنا تأتي القناعة فيقال: كن قنوعاً بما لديك ﴿... وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا...﴾.

لاحظ أنه عندما يختلف هذا المفهوم والأصل الثقافي في ذهن الإنسان فيعتقد أن القناعة تعني أن يكون صغير الهمة ودانيتها تتأثر حياته بهذا المقدار، لذلك كان تصحيح الأفكار من المهمات الأساسية بل الأولى لتغيير أوضاع الأمة.

وبينما كان الظالمون الطغاة يحاولون أن يركزوا مفاهيم خاطئة كالتواكل والتخاذل. ويكرسوا العجز من خلال قنوات إعلامية متعددة حتى يفقد الإنسان قدرته على التحرك على التغيير ويشوهوا الثورات التحريرية حتى يصنعوا ثقافة باطلة تنعدم على أثرها الحركة في المجتمع كانت أدوار قادة الدين من المعصومين عليهم السلام تهدف تصحيح الأفكار وتغيير الثقافة بالنحو الصحيح.

(1) الفرقان: 74.

(2) دعاء كميل المروي عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب.

من مظاهر التخلف الثقافي في الأمة

تسمى الأمة الإسلامية بأسماء متعددة؛ منها أنها خير أمة أخرجت للناس، ومنها أمة اقرأ، وذلك لأن نشوءها وتكوينها ولحظة البداية فيها هذا الأمر السماوي النازل على رسول الله ﷺ.

وينبغي التأمل في تأسيس هذه الأمة على هذا الأمر مع أن مقتضى الاعتبار العادية لو أردنا أن نلاحظها كان ينبغي مثلاً أن يأتي الأمر بالإيمان بالله أو بعبادته، فيقول مثلاً: آمن بالله أو أعبد ربك، صلِّ، صم.

تُرك كل ذلك وجاءت هذه الآيات المباركات وعلى المشهور أنها أول الآيات النازلة على رسول الله ﷺ وجاءت بصورة الأمر ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾⁽¹⁾.

تأمر الآيات المباركات النبي ﷺ، ومن بعده الأمة بالقراءة وسواء كانت قراءة الآيات التكوينية أو قراءة الآيات التشريعية فهي مسؤولية هذه الأمة، والدعوة إلى التفكير في أمر الخلق.

هذه الأمة التي هي أمة اقرأ، أمة الثقافة والعلم، خير أمة يفترض في كل شيء تعيش واقعاً ثقافياً متخلفاً ووضعاً علمياً

(1) العلق: 1 - 5.

متأخراً لا يحتاج المتأمل إلى كثير عناء لكي يلاحظه.
لكننا سنتعرض إلى بعض تلك المظاهر:

أولاً - فقر الإنتاج العلمي والفكري:

فمن أبرز المظاهر التي نلاحظها في تخلف الأمة، فقر إنتاجها الفكري والعلمي..

كيف يعرف مصنع أنه ناجح أو غير ناجح؟ عندما يصنع المادة المطلوبة منه بكفاءة جيدة ويعرضها السوق بكمية مناسبة عندئذ يقال هذا مصنع ناجح يصنع المادة والسلعة بكفاءة ويسوقها بكمية كبيرة. لو تطلعت إلى الإنتاج الثقافي والعلمي والفكري في أمتنا الإسلامية ماذا ستجد؟

سوف تجد هذه الأمة أمة مستهلكة أمة متبضعة، في الثقافة والمعرفة.

نأتي ببعض الأمثلة: جامعاتنا ومعاهد الدراسات العلمية العالية، ماذا تدرس من نظريات؟ هل هي من إنتاج هذه الأمة أو أنها نظريات تم استحضارها واستيرادها⁽¹⁾ من خارج الحدود. سواء في ذلك العلوم التطبيقية والعلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية..

إذا كانت هذه الأمة تُدرس ما ينتجه الآخرون فذلك يعني أنها متسوقة متبضعة مستوردة لا إنتاج فيها.

أحد مظاهر التخلف الثقافي في الأمة والتخلف العلمي أنها لا تستطيع إنتاج حاجتها من العلوم والمعارف بل حتى في الأمور الثقافية

(1) ينبغي أن نشير إلى أنه لا عقدة لدينا من استيراد المعارف والعلوم، وتعلمها من الآخرين، فـ (الحكمة ضالة المؤمن متى وجدها أخذها). (وأعلم الناس من جمع علوم الناس إلى علمه).

الدينية لا يوجد إنتاج مناسب لشأن الأمة من المعرفة والثقافة.
ولو أردنا أن نتكلم بلغة الأرقام أنقل لك - عزيزي القارئ -
ما ذكره تقرير التنمية الإنسانية في العالم العربي، ونحن نختار العالم
العربي باعتبار أن هذا العالم أحرى أن يكون متقدماً على بلاد
المسلمين لأن بصائر القرآن وثقافة الوحي هي بهذه اللغة فالطريق
أمامه مختصر.

المسلم في إندونيسيا أو باكستان أو بريطانيا أمامه عقبة اللغة لا
بد أن يجتازها حتى يتعرف على ثقافة الدين. بينما الإنسان العربي لا
يحتاج إلى ذلك فهي لغته الأم.

* ميزانية البحث العلمي:

يعرف تقدم كل مجتمع في مجاله العلمي والمعرفي بمقدار ما
يصرف من ميزانية على البحث العلمي وبقدر عدد المشتغلين في
مراكز البحث العلمي.. وحسب هذا التقرير فإن ما يصرفه العالم
العربي على البحث العلمي بمعدل 2% فقط من ميزانيته. في الوقت
التي تصرف بعض دوله على التسليح 30% من الميزانية! البحث
العلمي هو الذي يصنع التقدم بينما السلاح لم يصنع التقدم بل لم
يصنع - بذاته - نصراً.

العدو الإسرائيلي يصرّف على البحث العلمي أكثر من 16%
من ميزانيته وهو دولة محاربة على خط النار مع كل الدول العربية
بينما الدول العربية لا تصرف سوى 2%.. وهذه النسبة - على قلتها -
لا تصرف في البحث العلمي وإنما يصرّف نصفها في أمور جانبية
كعدد كبير من الموظفين البيروقراطيين، والأثاث، والبنائيات وما
شابه.. ويبقى للبحث العلمي المحض مقدار 1% من كل الميزانية!

* عدد الذين يعملون في المراكز العلمية:

معدل العاملين في مراكز البحث العلمي، في الدول العربية هو بمعدل 379 باحثاً لكل مليون إنسان. بينما المعدل الأدنى العالمي المقبول أن يكون 1000 باحث لكل مليون إنسان أي واحد بالألف، بينما في بلادنا العربية $\frac{1}{3}$ واحد في الألف!

* إنتاج الكتاب في العالم العربي:

الإحصائيات تقول أنه في سنة 1991 ميلادية كان عدد عناوين الكتب التي طبعت في البلاد العربية جميعاً 6000 عنواناً! كم هي نسبة هذا الرقم لعدد سكان العالم العربي؟ الذي يتجاوز ثلاثمائة مليون كما في بعض التقديرات.

نفس السنة أنتجت أميركا - وهي التي يقارب عدد سكانها عدد سكان الدول العربية مجتمعة - 100000 (مائة ألف) عنوان كتاب.. هذا من حيث عدد العناوين.. وأما مقدار ما يطبع هنا وما يطبع هناك؟ في البلاد العربية إذا طبع من كتاب خمسون ألف نسخة فذلك يعتبر عدداً استثنائياً كبيراً.. وأما هناك فالأرقام مليونية في كثير من الأحيان..

فأنت ترى أن الأرقام تفضح التقصير، وتفصح عن لزوم التغيير وذلك بالتركيز على إعطاء الاهتمام للفكر، وإعطاء الاهتمام للبحث العلمي.

كيف نحصل على التنمية؟

عندما رأى بعض العرب والمسلمين الهند - مع ما هي عليه من الفقر - قد وصلت للتقنية النووية (السلمية والحربية)، طُرح هذا السؤال على العالم الإسلامي والعربي، فكان أمامهم أحد طريقتين:

طريق المعرفة والبحث العلمي وإعلاء قيمة الثقافة والفكر وأن يعملوا على مدى 20 سنة..

والطريق الآخر: استيراد التكنولوجيا والوسائل عن طريق استيراد المصنع بكامله! فاحضروا المصنع من هناك وركبوه هنا! فصار لدينا مصنع بتروكيمياويات، ومصنع سيارات.. وهكذا.

غير أن هذا المصنع كان له عمر افتراضي، ويصنع سيارات ذات عمر افتراضي فتخدم مثلاً (5) سنوات بشكل جيد، بعد 5 سنوات تطور العلم في أماكن أخرى فأصبحت السيارة العادية أوتوماتيك، والتي كانت تستهلك وقوداً أكثر طورت لتستهلك أقل، وطورت عوامل الرفاهية والسلامة والأداء كل ذلك بناءً على وجود باحث علمي، ومهندس متخصص متفرغ لهذه العملية فيطور المصنع يوماً بعد يوم.

في بلادنا ما الذي حدث؟ هذا المصنع الذي أحضروه صار بعد سنوات حديد خردة وعبئاً على البلد، فلا أنت قادر على تطويره لعدم الباحث المتخصص، ولا هو قادر على أن يلي الحاجات المتطورة.

لقد كان الخطأ في التفكير أن الحضارة هي الوسائل والأشياء وأن مشكلتنا هي نقص تلك الوسائل، بينما كانت المشكلة في أزمة الأفكار كما يقول المفكر الجزائري مالك بن نبي.

ثانياً - شيوع فكر الخرافة والأسطورة:

هذه أيضاً من مظاهر التخلف التي لا تزال إلى الآن تفعل فعلها المخرب والمفسد في فكر الأمة. وأحياناً ينشر هذا الفكر (علماء دين) أو متلبسون بهذا العنوان.

عالم السحر شائع في بعض مجتمعاتنا وأكثر تأثيراً في عقول
أبنائها من أي قاعدة ثقافية! فالشخص تحدث لديه مشكلة نفسية أو
اجتماعية أو عائلية فيتبادر إلى ذهنه أولاً أنه مسحور، يقال: تلبسه
جنني!! وعلى أثر ذلك أصبح عندنا (خبرات) في هذا الشأن! علماء
يأتون ويتكلمون مع الجنى ويتخاطبون معه وبعضهم يعرض عليه
العقائد الحقّة ويسلم ثم يزوجه!!

نقلت بعض الصحف عن بعض هؤلاء أنهم زوجوا جنياً!!

تشبع بعض أبناء الأمة بهذه الحالة الأسطورية الخرافية، وكلما
ذهبت الأمة وراء الأسطورة ركلت عقلها.. وهكذا نجد مظاهر
التكنولوجيا موجودة لكن العقلية متخلفة، قشرة الحضارة موجودة
ولبها وروحها غير موجود، القنوات الفضائية موجودة لكنها هي التي
تعمق حالة الخرافة والأسطورة والغياب في سماء الأمة وفضائها.

الأبراج وبرامجها هي الأكثر متابعة لدى البعض، وهي عنوان
من عناوين الغياب عن الواقع ومعادلاته بحيث صار التقدم والتراجع
والربح والخسارة والنجاح والفشل ليس مربوطاً بسعي الإنسان كما
يقرره القرآن وإنما ارتبط ببرج الحمل والعقرب.. أين هذا من ﴿وَأَنْ
لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى * وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى * ثُمَّ يُجْزَأُ
الْجِزَاءَ الْأَوْفَى﴾⁽¹⁾.

وحقّي يتبين إلى أي مدى وصل تصديق الخرافة والبناء الفكري
عليها، أنقل لكم ما نشره موقع العربية على الإنترنت، كان هناك
خبير ومعه صورةٌ لمخلوق: الوجه والرأس فيه بشكل عنزة والجسم
لامرأة والأطراف أطراف حيوان آخر، والتعليق عليها أنها امرأة

(1) النجم: 39 - 41.

عمانية عصت الله فمسحها الله بهذه الطريقة التي ترون..

واستقطب هذا الخبر أكثر التعليقات بالقياس إلى بقية الأخبار السياسية، والمقالات الثقافية، وقد ذهبت في ذلك مذاهب مختلفة، بعضهم قال: نعم هذا جزاء من يعصي الله ونحن أنذرناكم! أحدهم قال إنه بسبب أميركا وتدخلها في عالمنا الإسلامي، ثالث قال: حدث هذا في عمان لأن مذهبهم مذهب فاسد..

لكن أطرف وآخر تعليق قال: هذا الخبر خبر مكذوب أصلاً، وهذه الصورة صورة مركبة، ولا يوجد لها حقيقة، إذا كنتم تريدون الحقيقة اذهبوا إلى الموقع الفلاني وذكر عنوان الموقع وتبين أنه موقع لفنانة أسترالية تتصور تخيلاً لو حدث نسل بين الإنسان والماعز ماذا تكون صورة المولود؟ لو حصل تناسل بين الفرس وبين الإنسان ماذا سوف يحدث؟ هذا لا يمكن أن يحدث ولكنه تخيل، وهذه الفنانة تعرض صوراً افتراضية حسب ذوقها الفني.

وهذه واحدة من الصور أخذها أحدهم وقال إنها لامرأة عمانية عصت ربها والقراء تبرعوا بالتعليقات مما يشير لميل هذه العقول إلى الغيبيات والأساطير.

إذا تحدث مفكر أو مبتكر عن قضية ضمن القواعد العلمية فإنه لا يُشير هؤلاء الناس ولا يستقطب تفاعلهم واهتمامهم، لكن لو أتى غيره بشيء غريب لا يُصدق كالخبر السابق، ترى قسماً من الناس يركضون وراءه ولهذا فإن بعض الدعوات السخيفة قد نجحت في تجنيد أتباع لها.

ها أنت تجد بين فترة وأخرى دعوة إلى شيء خرافي، انظر في المكان الفلاني ستري صورة أحدهم!! صورة نبي أو وصي أو العالم الفلاني وتتعجب أن قسماً من المتعلمين كيف يسيرون وراء هذه الأمور! وكثيرة هي الأمور الخرافية ولو استعرضناها لطلال بنا المقام.

العقل نقطة المركز في فكر أهل البيت:

في المقابل نحن نرى أن أهل البيت عليهم السلام قد جعلوا للعقل مركزية عظيمة، فمن كلام الإمام موسى الكاظم (عليه السلام) لهشام ابن الحكم هذه العقلية الجبارة والفيلسوف العظيم..

(يا هشام اعرف العقل وجنده، والجهل وجنده تكن من المهتدين، قال هشام: فقلت: جعلت فداك لا نعرف إلا ما عرفتنا. فقال عليه السلام: يا هشام إن الله خلق العقل وهو أول خلق خلقه الله من الروحانيين عن يمين العرش من نوره فقال له: أدبر، فأدبر. ثم قال له: أقبل فأقبل. فقال الله عز وجل: خلقتك خلقاً عظيماً وكرمتك على جميع خلقي. ثم خلق الجهل من البحر الأجاج الظلماني، فقال له: أدبر، فأدبر. ثم قال له: أقبل، فلم يقبل. فقال له: استكبرت فلعه) (1).

أتدري متى تنحدر الأمة؟

عندما يأتي أحد علمائها فيقول: إذا وصلنا نقل الرواية بسند صحيح وعارضها صريح العقل نضرب العقل بعرض الحائط فإننا أناس نتعبد بما ورد عن النبي! هكذا قال.

ونقول إذا كان الذي ورد عن الرسول ﷺ فيه كم هائل من المكذوب والمفتعل وقد أخبر عنه ﷺ بقوله ستكثر علي الكذبة.. ما يدريك أن هذا ليس من ذلك، ولا ينفع في الأمر مجرد أن يكون بسند صحيح، يحتاج إلى عرض على القرآن، وأيضاً على الأصول الدينية العامة، وعلى العقل. وسيأتي الحديث عنه.

(1) تحف العقول - ابن شعبة الحراني، ص 400 - 401.

ثالثاً - الاحتماء بالماضي والافتخار به:

من مظاهر تخلف الأمة الثقافي والفكري حالة الاحتماء بالماضي والافتخار به على طريقة:

أولئك أبائي فجنني بمثلهم إذا جمعتنا يا جرير الجامع.

عندما يتحدث العالم المعاصر عن ابتكاراته النظرية والعلمية واختراعاته التطبيقية والعملية في هذا الزمان نتحدث نحن عن أمتنا كانت هي السابقة وأن علماءنا كانوا قد أسسوا العلم بينما كانت أوروبا تغرق في ظلام الجهل.

وهذا صحيح في حده التاريخي وأن أولئك قاموا بما كان ينبغي منهم وما كان مناسباً لهم ولكن ماذا عن الحاضر ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ...﴾⁽¹⁾.

هذه الحالة مع الأسف تتحكم في طبقة عريضة من أبناء الأمة، حيث تجد هذه الطبقة أن الصورة المثالية للأمة أن تعيش في عصر صحابة النبي ﷺ ولو استطاعت أن تعيد هذه الأمة من واقعها المعاصر إلى زمن الصحابة لفعلت ذلك كما حاولوا في تجربة طالبان وكما يحاول غيرهم في تجارب أخرى معتمدين على مقدمتين كلتاهما خاطئة:

المقدمة الأولى: أنه بالإمكان أن يعود الزمان بحيث ترجع هذه الأمة التي تعيش في القرن الحادي والعشرين الميلادي إلى القرن السادس الميلادي.

والأخرى: أن هذا هو الأفضل وأن الوضع الذي عاشته الأمة في العصر الأول هو الوضع الأحسن.

(1) الأعراف: 169.

وأقول: كلتا المقدمتين خاطئة فلا يمكن لأمة تعيش في هذا الزمان أن تعود إلى الوراثة أربعة عشر قرناً! ولو أمكن ذلك فليس بصحيح أيضاً! من الذي يقول أن ذلك العصر هو أفضل من هذا العصر؟ وأي دليل على ذلك؟ إن الصورة المثالية الخاطئة التي تُنسج حول ذلك العصر وكأن أبنائه أبناء الله أو ملائكة مُرسلون من عالم الغيب ليس بينهم شحنة ولا بغضاء ولا يوجد عندهم حقد ولا يتبعون مصالحهم ويطبقون الدين بحذافيره ويعملون ما أمر الله به بصورة كاملة.. هذه صورة كاذبة غير حقيقية⁽¹⁾.

ذلك العصر كان فيه سلام وحروب، كان فيه وفاء وخيانة، طاعة ومعصية، إخاء وبغضاء! لم ينزل أبناء ذلك العصر من السماء ولم يكونوا رسلاً من الملائكة بل كانت تتحكم

(1) بدأ بعض المفكرين المسلمين في الآونة الأخيرة ينتهون إلى هذه النتيجة وأنما فتاح معرفي مهم، ففي مقال له في جريدة الوطن الكويتية بتاريخ 2005/1/31 طالب د. عبد الحميد الأنصاري أستاذ الشريعة في جامعة قطر بنزع القدسية عن تاريخ الصحابة وتحليل حياتهم ضمن ظروفها الطبيعية، لكونهم بشراً يخطئون ويتحاربون، وأكد على هذا الكلام في حوار مع قناة العربية الفضائية حيث جاء فيه: يجب أولاً أن نفرز الدين عن التاريخ، الدين معطى مقدس أما تاريخ المسلمين مثله مثل أي تاريخ لأي أمة.. أما تاريخ المسلمين فهو تجارب، اختلاف الصحابة على السلطة، الصحابة بشر يصيبون ويخطئون لهم أطماع وهم طموحات، كون أن الأنصار يريدون خليفة وكون أن المهاجرين يريدون خليفة، كون معاوية حارب يعني الإمام علي هذه خلافات بشر، فيجب إزالة القدسية والعصمة عن ذلك، أما نقول ما شجر من خلاف أو ما حصل من خلاف هذا لا نتكلم عنه حتى لا نمس القدسية هذا أخطر شيء، نحن يجب أن نتبين المنهج النقدي، المسلمون ليسوا بدعة من بين الأمم.. وشتان بين هذا الكلام وبين ما قاله بعض العلماء المعاصرين من أن: (تقديس الصحابة هو الركن السادس في الإسلام)! راجع العربية نت يوم 1428/4/22.

في بعضهم التوجهات الدنيوية كان بعضهم لم يدخل الإيمان في قلبه⁽¹⁾ كان هناك مؤمنون ومنافقون⁽²⁾.

قد يقول قائل ما تصنع بحديث (عن رسول الله: خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم)؟
فنقول أولاً: لم تتحقق صحة هذا الحديث.

وعلى فرض صحته فلا بد من تقييده بما ورد عن رسول الله ﷺ من أن من أصحابه من سيرتد، وأنهم سوف يدفعون عن الحوض إلا مثل همل النعم (تعبيراً عن القلة) فلا بد من تقييده بأن ذلك القرن هو الأفضل ما لم يغيروا أو يبدلوا، أو في خصوص أولئك الذين لم يبدلوا.

على أن (هذه المرويات لو صحت لا تدل على أنهم قد بلغوا من الدين مبلغاً يعصمهم عن اتباع أهوائهم وشهواتهم، ويدفعهم إلى الامتثال واجتناب المحرمات، ومن الجائز أن يكون الثناء عليهم باعتبار أن صحبتهم للنبي والتفافهم حوله يشكل مجموعة متماسكة لحماية الإسلام من أخطار الغزو المرتقب في كل لحظة من داخل البلاد وخارجها، هذا التكتل باعتباره من مظاهر القوة التي تمكن سير الدعوة كان محبوباً لله سبحانه. مع قطع النظر من خصوصيات الأفراد التي تخص كل واحد من حيث تصرفاته وأعماله. هذا بالإضافة إلى أن حديث لا تسبوا أصحابي، وأصحابي كالنجوم. هذا الحديث من حيث اشتماله على صيغة الجمع، لا يتعين للشمول والاستيعاب، بل يصح منه ولو بالنسبة إلى المخلصين في ولائهم

-
- (1) «... وَلَكَمَا يَدْخُلُ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ...» [الحجرات: 14].
(2) «وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النَّفَاقِ لَا نَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ...» [التوبة: 101].

العاملين بأوامر الله المتمسكين بسنته وسيرته، ولا ينكر أحد وجود مجموعة كبيرة بين أتباعه، قد تفرغوا في خدمة الإسلام، وأخلصوا في أعمالهم وجهادهم طمعاً في مرضاة الله وثوابه، والحديث ونظائره على تقدير صدوره من النبي لا بد وأن يكون ناظراً إلى تلك الفئة من بين أتباعه، ومن غير المعقول أن يقصدهم النبي ﷺ على جهة العموم، وهو المخاطب بتلك للآيات التي وصفت فريقاً منهم بالنفاق والبغي وفريقاً بالتأمر على حياته وإحباط جميع مساعيه وجهوده التي بذلها في سبيل الدين وتثبيت دعائمه، من غير المعقول إذ يقصدهم جميعاً من تلك النصوص، ويقف موقف المدافع عنهم المجامل لهم، والآيات الكثيرة تنادي بنفاقهم، وتكشفهم على واقعهم كي لا يغتر بهم أحد من أصحابه الطيبين، وحتى لا تكون الصحبة ستاراً لأصحاب الشهوات والمطامع يستغلونها لأغراضهم ولكي لا تكون للصحابي تلك الحصانة التي تمنع من نقده وتجرئحه..⁽¹⁾.

على أن الأحداث التي حدثت في القرن الأول - من الناحية الزمنية - تعتبر أشد الأحداث مأساوية في تاريخ المسلمين فهو الذي وقعت فيه حروب وصل عدد ضحاياها إلى ما يزيد على مئة ألف من المسلمين في وقت كان لقتل شخص لا بد من ضربة سيف! ليس كما هو الحال الحاضر حيث قبلة واحدة تقضي على عشرة ومائة وألف!

ولا يغير الحال لو فسرنا القرن بغير الفترة الزمنية، وقلنا إن المقصود منه هو الجيل، وبالتالي صحابة النبي أفضل، ثم التابعون.. وهكذا، فإن ما وقع من القتال والتشاتم والتلاعن بين صحابة النبي فضلاً عن التابعين مما يراه كل ناظر إلى التاريخ ويتعجب منه، وإذا

(1) دراسات في الحديث والحديثين - هاشم معروف الحسني، ص 79 - 80.

كان هؤلاء بهذه الصفات هم خير القرون والأفضل، فكيف يكون غيرهم؟

إنه يعتقد أن لهذه الفكرة منشئين، أحدهما محاولة تنزيه الصحابة وتقديسهم، وحل المشكلة الفكرية التي يستدعيها وضعهم غير المنسجم، فلا بد من طريق يغلق فيه باب التفكير، وهو التقديس والتنزيه وأن (نترك ما شجر بينهم) وأن لا يتحدث أحد فيه!

وثانيهما: فكرة الاحتماء بالماضي والعودة إليه وهي في الواقع تعبير عن الإفلاس والتخلف.

الأمة التي تعيش أزمة في حاضرها وتعيش ضبابية في رؤية مستقبلها تلجأ إلى الماضي لأنها تستطيع أن تصوره بصورة حسنة، تماماً على طريقة التاجر المفلس يبحث في الدفاتر العتيقة والمدونات القديمة عن ديونه على الآخرين لأنه مفلس الحاضر ولا أمل له في المستقبل.

لماذا تجد أن الكتاب العربي والإسلامي الرائج هو الكتاب التراثي، الكتاب الذي ألف قبل سبعمائة أو تسعمائة سنة بينما الكتاب الذي يُؤلف اليوم ليناقد المستقبل لا يجد له قراء؟ وإذا أراد ناشر أن ينشره لحسابه الخاص يقدم فيه على مغامرة؟ إنما ذلك لأن هذه الأمة أمة تراثية أمة تقرأ ما كان في الزمن الماضي لا تريد أن تفكر بالحاضر فضلاً عن أن تتطلع إلى المستقبل.

ولذلك فإن الذي يفكر تفكيراً تجارياً، إنما يقوم بطبع تلك الكتب التراثية بغض النظر عن منفعتها الفعلية، فإن لم يربح في هذا البلد يربح في غيره، وأنت لم يشتره الرجال تشتريه النساء..

لا للقطيعة التامة مع التاريخ:

لا يخفى أننا لا نريد أن نقطع الصلة بالماضي بالكامل هذا لا أحد يقول به فالقرآن الكريم وهو كتاب الحاضر والمستقبل يوجه الأمة إلى رسالات الأنبياء السابقة وإلى الماضي لكن لا لأجل الافتخار الأجوف والمباهاة ولا لأجل التكاثر وإنما لأجل أن يعرف الإنسان كيف تقدمت تلك المجتمعات وكيف تخلفت حتى ينطلق من مسيرته من مواطن القوة والتقدم ويترك جوانب التأخر والإعاقات جانباً.

ونقول: إن هناك نظرتين للماضي، فتارة يكون الماضي محطة انطلاق ومدرسة وعبرة وأخرى يكون كهفاً يلجأ إليه ومكاناً يستظل به ورداء يستدفأ به. هذه النظرة هي التي تصنع من الأمة أمة ماضوية متأخرة وأمة غائبة عن واقعها.

عندما تجد أن عالماً من علماء المسلمين قبل سبع مئة سنة يطلق أحكام التكفير ضمن ظروف معينة في ذلك الزمان ولكنها إلى الآن لا تزال تحرك مجاميع من أبناء المسلمين ليكفر بعضهم بعضاً، فيغيب هذا الإنسان من رؤية ما حوله، والحال أنه يستطيع أن يتعرف على واقعهم مباشرة وبصورة واضحة، فيترك هذا ويعتمد على أن فلاناً قال أن هذه الفرقة منحرفة مبتدعة لأن عندهم قرآناً غير قرآن المسلمين. وأهم كذا وكذا.. فيسير جيل هذا الزمان بفكر كان قد أنتج قبل سبعمئة سنة سابقة، هذه الحالة هي من مظاهر التخلف الثقافي والفكري.

إن ثقافة كل أمة ينبغي أن تنتج في زمانها لكي تجيب على إشكالات ذلك الزمان ولكي تعالج مشاكل ذلك العصر. كل عصر جديد يحتاج إلى ثقافة جديدة وفكر ومعالجات مناسبة له، وربما استفادت من الماضي ولكن لا تستطيع أن تكون أسيرة له.

من أسباب التخلف

الجانب التربوي

دعنا نناقش شيئاً من أسباب التخلف في الأمة: لماذا كان هذا التخلف الثقافي؟ لماذا حصل هذا التأخر بهذا المقدار؟ هناك أسباب كثيرة ولكننا هنا سوف نتحدث عن الجانب التربوي. فنتساءل في هذا الجانب هل أن أجيال الأمة تنشأ تنشئة تنتهي إلى الانطلاق أو تُنشأ تنشئة تدعوها إلى التراجع والتخلف؟ مع الأسف يمكن القول أن التنشئة التي حصلت عليها أجيال الأمة في الغالب كانت تنتهي إلى التخلف.

- ما هي الثروة؟

لو سألنا شباب الأمة عن ما هي الثروة الحقيقية للفرد والمجتمع؟ فإنه يتم الحديث حالياً عن أن الدول الخليجية مثلاً دول ثرية.. لأنه يوجد لديها النفط الخام المخزون تحت الأرض.. وبعض بلاد المسلمين لديها معادن أخرى كالفسفات، والنحاس، والذهب.. إلخ. على هذا المعدل فإن هذه البلاد بلاد ثرية لأن لديها مقادير هائلة من المواد الخام التي تأتي بالعملة الصعبة..

هل فعلاً المواد الخام ثروة؟ أو أن المعرفة هي الثروة؟

يتحدث الباحثون عن أن الاقتصاد الذي يقوم على أساس استنزاف المواد الخام كما هو الشائع في أكثر البلاد العربية هو سبب

من أسباب تخلفها التنموي والاقتصادي⁽¹⁾، وأنه سوف ينتهي في يوم من الأيام عندما تنتهي أو تتناقص هذه المواد الخام، وسترتطم هذه الدول بالجدار.

متى تغير فكر الأمة على مستوى المجتمعات أن هذا النمط من الاقتصاد ليس هو الاقتصاد المطلوب! وأن اقتصاد المعرفة والعلم هو الأساس. ولعلنا نجد في تراثنا الإسلامي ما يدعم هذه الفكرة كالقوله التي يقولها أمير المؤمنين علي عليه السلام: (يا كميل العلم خير لك من المال) المال يزول وينتهي؛ المال تنقصه النفقة، وأما العلم فيزكو على الإنفاق، يزداد، ينمو، يكبر، هل الثقافة السائدة في مجتمعاتنا الإسلامية والعربية فعلاً أن العلم خير لك من المال! كلا.

المثل الشعبي المأثور واللي يؤثر تأثيراً مباشراً على الكثير يقول: (عندك فلس تسوي فلس) في مقابل هذا كإنسان كوجود كمخلوق ماذا تساوي في هذه الأثناء؟ صفراً!

هل يرضى الإنسان لنفسه هذه الإهانة أن يقول إن وجودي يساوي صفراً! عقلي يساوي صفراً، قدرتي تساوي صفراً.

ينقلون أن هارون الرشيد استدعى بملول، وقد كان أحد العلماء لكن طُلب للقضاء ففر بدينه وأظهر الجنون! استدعاه هارون الرشيد يوماً وقد لبس أفخر ملابسه، قال له: كم أنا عندك، كم أساوي عندك؟ تطلع بملول إليه، فقال: مئة دينار، فغضب وقال: ويحك ملابسي قيمتها مئة دينار! قال: هو ما أردت! يعني أنت لا تساوي غير الملابس التي تلبسها.

متى ما تحول في وعي هذه الأمة أن العلم خير للأمة من المال،

(1) تقرير التنمية الإنسانية العربية عام 2003م.

وأن المعرفة هي الركيزة والفريضة الغائبة ترقب أن يحصل تقدم وتنمية، وعلو لهذه الأمة وهذا يحتاج إلى تربية خاصة. تربية لا تجعل الغني الأمي أعلى منزلة في المجتمع من الأستاذ الجامعي.

وإذا أهملت الأمة الفكر ولم تعتن بالمعرفة فإنها تصبح طعمة المتآمرين والمستغلين السياسيين، يذكر أحد الكتاب هذه القصة المعبرة: كان مقرراً أن تجري انتخابات في إحدى المناطق وكان أحد المرشحين المتنافسين في هذا الموقع مثقفاً لديه أفكار تقدمية وبرنامج اجتماعي لكنه لا يملك أموالاً كثيرة بينما كان الطرف المنافس له شخص عنده مال وليس له معرفة، فكّر هذا الثاني أي إذا تركت منافسي يتحدث مع الناس سوف يتنورون ويتعلمون وبالتالي سيفوز فماذا أصنع؟

جمع أهل المنطقة قال لهم: هذا فلان المرشح شخص ديمقراطي، ولكنه هل تعرفون معنى الديمقراطية؟ قالوا: لا نعرف معناها!

أجاب: الديمقراطية تعني: أن المرأة لا يكون لها زوج واحد بل يصبح لها عشرة أزواج يشتركون معه فيها! ولا أحد يقف أمامهم. هذا المرشح يدعو إلى الحرية، هل تعرفون معنى الحرية؟ الحرية تعني أن يمارس كل واحد المنكرات ولا أحد يعترض، يعني لو أراد أبناؤك فعل الفاحشة مع بناتك فلا أحد ينكر عليه، لأنه حر، هذا معنى الحرية، فذهبوا وأسألوه إن كان يؤمن بالحرية والديمقراطية أو لا؟

ذهبوا إليه وأسألوه، فقال: نعم وأفتخر أنني أو من بالديمقراطية والحرية.

وكانت النتيجة واضحة يوم الانتخابات، فقد فشل هذا المفكر والنافع للمجتمع بينما فاز ذلك المزور.

لقد تم سوق هذه المجموعة البشرية إلى مثل هذا المصير لعدم وجود الوعي والثقافة.

أبناؤنا والعلاقة مع الكتاب:

مما يرتبط بالجانب التربوي: العلاقة بين الطالب وبين الكتاب.. كيف نصنعها في المدرسة؟ وفي البيت؟ نحن نخلق في الغالب علاقة متشنجة بين الشاب وبين الكتاب.

العلاقة علاقة قطعية، فالطالب يرى الكتاب - عبر ممارسات متعددة - تحدياً له، لأنه إذا لم يحفظ هذا السطر يحصل على ضربة على رأسه من المدرس، وإذا تعثر في الحصول على درجة جيدة في الامتحان حصلت له مشكلة مع والده، وإذا لم ينجز وظيفته المدرسية ينتهي إلى سخرية المدرس أو المدير منه، وتتراكم هذه الأمور يوماً بعد يوم، وسنة بعد أخرى، فتجعل الكتاب في ذهن الطالب عنواناً للتحدي، ولافتة للعقاب وللفشل، إلا القليل ممن يستطيع أن يتجاوز هذه العلاقة.

هل راقبت يوماً ما الذي يحدث عند خروج الطلاب من قاعة الامتحانات النهائية.. ماذا يصنع الطلاب بالكتاب؟ هل يقول الطالب هذا كتاب جيد دعني أحتفظ به في مكانه المناسب؟ حتى طريقة رميه يرميه عالياً في الفضاء حتى يتمزق! أو يأخذه ويقطعه بيده مستمتعاً.. هل هي علاقة و(خير جليس في الزمان كتاب)؟

هذا عن الكتاب المدرسي.. ماذا عن غيره؟

كم يقرأ الطالب الجامعي من الكتب؟ وكم نسبة من قرأ كتاباً إضافياً غير كتب المنهج الدراسي الجامعي؟ لقد أخذت عينة عشوائية من جامعة دمشق تبلغ ألف شخص.. وتبين أن الذين قرأوا كتاباً

واحداً وما فوق من تلك العينة خارج المنهج الدراسي 17% فقط
وهؤلاء نخبة المجتمع..

أما إذا أردت الحالة العامة فكم عدد الكتب التي يقرأها الإنسان
العربي والمسلم في السنة؟

إحصائية أخرى تقول كما في تقرير التنمية الإنسانية العربية
وصحف أخرى: إنه في الوقت الذي يقرأ الفرد الأميركي (11) كتاباً
في السنة كمعدل عام، ويقرأ البريطاني (7) كتب في السنة
والإسرائيلي (6) كتب.. يقرأ العربي ربع صفحة فقط!!

هذا المجتمع الذي يقرأ الفرد فيه ربع صفحة فقط في السنة كاملة
كيف له أن ينهض.. لا بد أن تفكر الأمة أن العلم هو ثروتها، وأن
المعرفة هو كنزها..

أثر الاستبداد في تخلف الأمة

الجانب السياسي

يتناول هذا الموضوع جانباً من أثر الاستبداد⁽¹⁾ في تكريس التخلف الثقافي والفكري في الأمة، ونقدم لذلك بمقدمة هي أن هناك ميلاً لدى بعض الفئات في أمتنا العربية والإسلامية إلى إلقاء المسؤولية خارج الحدود، وإلى تعليق الأسباب على غير ما هو سبب حقيقي لها، فإذا سئلت هذه الفئة لماذا تعيش الأمة هذا التخلف؟ سيكون الجواب سريعاً بسبب الاستعمار.

الاستعمار في نظر هؤلاء هو الذي صنع التأخر والتخلف في الأمة، إسرائيل هي التي شغلت الأمة عن العلم والمعرفة بالحرب فعطلت مسيرتها تجاه التنمية والتقدم، مؤامرات الأعداء هي التي تمنع حركة الأمة باتجاه العلو والارتفاع، كيد الكفار هو الذي يؤخر هذه الأمة والمؤامرة المستمرة من قبلهم هي التي تعيقها، وهكذا تسوق لك هذه الفئة أكواماً من الأسباب كلها تنتمي إلى الخارج وكأن التخلف صناعة خارجية وليس خاضعاً لقوله تعالى: «... إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ...»⁽²⁾.

بينما يشير القرآن الكريم وتجارب الأمم إلى أن الأمة لا تتأخر إلا إذا كان بداخلها مرض يمنعها من التقدم ولا تتخلف إلا إذا

(1) للتفصيل يمكن مراجعة كتاب: رؤى في قضايا الاستبداد والحرية - للمؤلف.

(2) الرعد: 11.

أرادت لنفسها أن تتخلف أو قبلت بمن يفرض عليها هذا التخلف، أما الأمة الواعية، النشطة، التي ترفض القعود والجمود وأفكار التكاسل واليأس هذه أمة لا يضرها كيد استعمار ولا مؤامرة عدو ولا غير ذلك.

الأمة في هذه الحالة مثل البدن الذي يصاب بالحمى والمرض، فإن الميكروب لا ينفذ إليه إلا عندما يجده فاقداً للدفاعات وعدم المناعة فينفذ إليه ويستوطن فيه.

أما إذا كان هذا البدن قوي المناعة آتخذ يصطدم الميكروب بجدار من المناعة فينكفي على عقبه. الأمة التي يوجد فيها وعي لا يمكن للمستعمر أن يصنع فيها شيئاً مهماً، والتي تتحمل المسؤولية لا يمكن لمؤامرات الأعداء أن تتحكم في مصيرها فالمشكلة مشكلة داخلية أولاً وبالذات، ثم بعد ذلك تأتي الأسباب الخارجية كعوامل مساعدة.

وإذا أريد البدء في تنمية الأمة فلا بد أن نبدأ من الداخل متمثلين قول الله تعالى: ﴿... إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ...﴾.. إذا غيرت الأمة ثقافتها وممارستها السياسية وشأنها الاجتماعي بحيث تتحمل المسؤولية آتخذ - وليس قبله - فإن الله يغير ما بها وما يجري عليها وهذا قانون عام.. ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾⁽¹⁾.

مع الالتفات للآية، فإن القرآن لا يقول على قوم مسلمين أو عرب أو في هذه المنطقة أو تلك وإنما يبين أن هذا قانون إلهي وسنة ربانية: إن المجتمع - أيًا كان - إنما يتغير ما به وأوضاعه الخارجية،

(1) الأنفال: 53.

إذا تغير ما بداخله من الثقافة والفكر من الاعتقادات والمنطلقات .
لذلك لا ينبغي أن نصدق بأن المشكلة هي في المؤامرات
الخارجية بل المشكلة هي بالداخل، المشكلة هي عندي وعندك
وعندنا وعندكم وعنده وعندها وعندهم وعندهن.
من جملة المؤثرات في بقاء التخلف في الأمة: الاستبداد.

الاستبداد شأن داخلي يؤثر في الأمة، فيكسر فيها التخلف
والتأخر والتقهقر فلو نظرنا إلى الآية المباركة التي تقول: «... قَالَ
فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ».

وينبغي هنا ملاحظة أن القرآن الكريم يكثر من الحديث عن
تجربة بني إسرائيل ولعل جهة ذلك أن التجربة التي خاضها المجتمع
الإسرائيلي مع أنبيائه شبيهة بالتجربة التي سيخوضها المجتمع المسلم
مع النبوة والإمامة فالمكونات الشخصية بين الشيعين متشابهة،
والمنطقة الجغرافية منطقة متقاربة وبالتالي فالمؤثرات العامة مؤثرات
متقاربة لذلك يفترض أن أخذ العبر والدروس من هذا المجتمع هو
أكثر فائدة من أخذها من بقية المجتمعات.

فكان أن قدم القرآن الكريم تجربة المجتمع الإسرائيلي من خلال
جهات متعددة.. راجعوا سورة البقرة سوف تجدون حديث مفصلاً
عن هذا المجتمع بشكل عام كما تحدث في مواضع أخرى عن تجربة
بعض الفئات في هذا المجتمع بنحو خاص مثلاً عن قارون وهامان
وفرعون، تحدث عن رجال الدين المزيفين مبيناً أن هامان باعتباره
واحداً من الكهنة وسدنة الدين الذين يمارسون دوراً سيئاً في تخدير
الأمة وتمهيد طريق فرعون لاستعبادها، تحدث عن أن القوة المالية
يمكن أن تتحول إلى قوة مدمرة عندما يطغى هذا الإنسان ويبغي
ويتجاوز الحدود في صورة قارون ويبيّن أيضاً أن السلطة السياسية

المستكبرة - متمثلة في فرعون - من الممكن أن يصل بها الأمر أن تدعي أن لا إله سواها ولا رأي إلا رأيها ولا صواب إلا عندها وأما الباقون فكل كلامهم هراء وكل عقولهم هباء. ﴿... مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى...﴾.

يقول هذا المستبد: إنني أفتح نوافذ الرؤية والمعرفة في المجتمع بالمقدار الذي أراه. بالطبع لن يكون ذلك المقدار إلا بنحو يدعم سلطة فرعون.. ولذلك فقد استنكر فرعون كيف أن قسماً من الناس قد وصلوا معرفة من دون إذنه؟ كما ينقل القرآن في قضية السحرة ﴿فَأَلْقَى السَّحْرَةَ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾⁽¹⁾ لقد فتح لهم باباً محدوداً من المعرفة فإذا بموسى وهارون يفتحان لهؤلاء السحرة أبواب المعرفة مشرعة ويريان السحرة قدرة الله الذي أودعها في عصا يابسة فانقلبت إلى ثعبان يلقف ما يؤفكون.. كانت ردة فعل فرعون ماذا؟ ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ...﴾؟⁽²⁾.. أنا الذي ما أريكم إلا ما أرى كيف تجاوزتم ذلك؟ ﴿... فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمَنَّ آيَاتُنَا أَشَدَّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾⁽³⁾!

إن هذه العقلية ﴿... مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ وعقلية أن (الشيوخ أخص - أعرف -) وأنه لا توجد معرفة ولا ثقافة إلا التي يملكها المستبد هي أسوأ آثار الاستبداد في تكريس التخلف.

(1) طه: 70.

(2) الأعراف: 123.

(3) طه: 71.

(وهذه هي حال كافة الطواغيت والجبارين على طول التاريخ، فهم يعتبرون كلامهم الحق دون غيره، ولا يسمحون لأحد في إبداء وجهة نظر مخالفة لما يقولون، فهم يظنون أن عقلهم كامل، وأن الآخرين لا يملكون علماً ولا عقلاً... وهذا هو منتهى الجهل والحماقة)⁽¹⁾.

إن كل مخلوق إنساني خلق معه عقل، ويحاسب على أساسه، حيث يستطيع أن يكتشف ويتأمل.. فما هو معنى (ما أريكم إلا ما أرى) يعني أن عقولكم مجتمعة أقل من عقلي منفرداً!!
هذه الحالة التي ينتهي إليها الاستبداد هي من الأسباب التي كرسست التخلف في واقعنا الثقافي في أمة العرب والمسلمين حالات الاستبداد الموجودة كيف ذلك؟

الحاكمون الانقلابيون:

لو لاحظنا الفئة السياسية التي حكمت بلاد المسلمين في الفترات المختلفة لما وجدناها ناشئة من وسط معرفي أو ثقافي متميز وإنما نشأت في الغالب من وسط تقليدي قبلي أو وسط عسكري عبر الانقلابات وما شابه ذلك قد تقول: ما الفرق في النتيجة؟
الفرق هو إذا جاء أحدهم من وسط ثقافي أصبح الحاكم يعرف قيمة الثقافة والمعرفة ويعرف كم هي نافعة للأمة فسيجعل كل جهده في هذا الجانب. أما إذا جاء عسكري مثلاً وأصبح قائد الأمة، أو جاء تقليدي لا يعرف قيمة العلم أو المعرفة، فسينعكس ذلك بشكل واضح بنحو سلبي على موقعهما في حياة الأمة..

(1) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل 248/15.

بل لقد رأينا أن الحالة السياسية المستبدة التي سادت في بعض البلاد الإسلامية انتهت إلى طرد الكفاءات العلمية ولو بشكل غير مباشر وذلك أنه لو تحدث ذلك المفكر، والعالم الكفوء، بما انتهى إليه فكره، فإن عقلية (ما أريكم إلا ما أرى) تمنعه. فإن سكت مات بغضته، وإذا تحدى صار شهيد كلمته ووعيه، فيختار البعض أن يخرج مهاجراً فيتواصل نزييف هجرة الأدمغة والعقول.

فقد تحدث تقرير التنمية الإنسانية العربية لعام 2003م، عن تنامي ظاهرة هجرة الأدمغة العربية مما يعني خسارة كلفة إعداد وتدريب هذه الكفاءات، كما تمثل فرصاً مضاعفة من الإسهام في التنمية. فمن أصل 300.000 من خريجي المرحلة الجامعية الأولى من الجامعات العربية في العام الدراسي 1995/1996م يقدر أن نحو 25% هاجروا إلى أميركا الشمالية ودول السوق الأوروبية، وبين عامي 1998 و2000م غادر أكثر من 15000 طبيب عربي إلى الخارج. ويقدر أنه بحلول العام 1976 كان قد غادر البلدان العربية نحو 23% من المهندسين و50% من الأطباء و15% من حملة الشهادات الجامعية الأولى.

مأساة الفكر مع الاستبداد:

إن وضع الكتاب والفكر في أمتنا الإسلامية ليلخص مأساة الأمة في سائر النواحي والجهات.

لقد أصبح الكتاب في كثير من المناطق جرماً يُضبط به صاحبه! إحدى الصحف نشرت أن الشرطة الدينية في بلد مسلم، قد عرضت مضبوطاتها للزائرين، ما هي هذه المضبوطات وشواهد الجرم؟ نسخة من الإنجيل وكتب لبعض المذاهب الإسلامية غير المتوافقة مع المذهب الرسمي!

أتى لهذه الأمة أن تنهض من تخلفها وهي تتعامل مع الكتاب كمضبوط جرمي؟ وفي بعض الحالات أسوأ مما تتعامل به مع المخدرات والأسلحة؟ وصار يُتلف كما تتلف السموم؟

لقد أشار رئيس اتحاد الناشرين العرب في إحدى مقابلاته إلى جانب من المشكلة عندما قال: أزمة الكتاب في العالم العربي أنه لا بد أن يمر على 22 رقيباً مزاجياً! ونفس هذا الكلام جاء في التقرير الصادر عن الأمم المتحدة 2003 عن التنمية الإنسانية العربية.

ثم أي كتاب سيخرج إلى القراء إذا كان سيحتاز مزاجية اثنين وعشرين رقيباً؟ لكي يتجاوز كل هذه العقبات، لا بد أن يكون بلا لون ولا طعم ولا رائحة، فإن الرقيب التقليدي إذا رأى في الكتاب فكراً تقديمياً منع دخوله، وإذا كان من مذهب معين وكان الكتاب ينبعث من فكر مذهبي آخر لم يسمح به، وهكذا لو كان ينتمي إلى جهة سياسية معينة، ورأى في الكتاب رائحة سياسية أخرى لم يقبل له.. وهكذا.

فأي كتاب بعد هذا يمكن أن ينجو من كل هؤلاء غير تفسير الأحلام؟ تفسير الأحلام ليس فيه لون ولا طعم ولا رائحة ليس مع أحد ولا ضد أحد لا يقدم ولا يؤخر، لا ينقل من السكون إلى الحركة، وإنما ينقله من اليقظة إلى النوم، يقول له: تعلم معادلات النوم والرؤى والأحلام..

ويتعجب الإنسان كيف تقبل هذه الأمة بما يشبه الإحصاء الفكري والنظري؟ عندما تقبل بشخص أشبه الناس بالأمي، فيصبح رقيب الإعلام الذي يوجه ثقافة كل المجتمع ويتحكم فيها منعاً وسماحاً، فيكون البروفيسور الكفوء، والاقتصادي الكبير والسياسي المخضرم والمفكر العالم.. كل هؤلاء، كتاباتهم ونظرياتهم تحت سيف

قلم هذا الإنسان الذي لا يقدر على كتابة سطرين إلا بالكاد!
وأحياناً كثيرة لا يفهم ما هو المكتوب في الكتاب، ولا المقصود من
سطوره، ولكنه يحتاط فيمنع الكتاب على أي حال!!

هذه ليست طرفة، وإنما واقع تعيشه الأمة مع الأسف. وهي
نفس عقلية (ما أريكم إلا ما أرى). وهذه المأساة تأتي لتكمل مأساة
أخرى تم الحديث وهي فقر إنتاجها الثقافي والفكري.. فإضافة إليه،
فإن ما ينتج لا يسمح له.

لقد جعلت منظمة (مراسلون بلا حدود)⁽¹⁾ حدوداً ومقاييس
للحد الأدنى المعقول من حرية التعبير وانتشار الكتاب واستعرضت
دول العالم وأي هذه الدول تحتوي على ذلك، وذكرت أسماء (50)
دولة من دول العالم فلم يكن بين هذه الدول الخمسين أي دولة
عربية واحدة!

وفي كل سنة يتم اختيار عاصمة من عواصم الدول العربية
لتكون عاصمة الثقافة العربية⁽²⁾، ويقام فيها معرض للكتاب وندوات

(1) «ولم تحظ أي دولة عربية بموقع ضمن الدول الخمسين الأولى، فقد حل لبنان في
الموقع 56، والبحرين في الموقع 67، والكويت في الموقع 78، والسلطة الفلسطينية
في الموقع 82، والمغرب في الموقع 89، والجزائر في الموقع 95، والأردن في الموقع
99، ومصر في الموقع 101، واليمن 103، والسودان 105، والسعودية 125،
وسوريا 126، وتونس 128، وليبيا 129، والعراق 130. ولكن القائمة لم
تتطرق إلى أي من قطر أو دولة الإمارات العربية المتحدة أما إسرائيل، فقد حلت
في الموقع 92» عن تقرير منظمة مراسلون بلا حدود عام 2002.

(2) وكانت تجربة العواصم الثقافية العربية قد انطلقت في الوطن العربي بإعلان
القاهرة عاصمة للثقافة العربية عام 1996، وتونس عام 1997 بناء على اقتراح
من المجموعة العربية في اليونسكو خلال اجتماع اللجنة الدولية الحكومية
للعشرية العالمية للتنمية الثقافية (باريس: 3 - 7 أبريل 1995). وتواصلت هذه
التجربة لتشمل مدينة الشارقة عام 1998، ثم مدينة بيروت عام 1999.

وتكريم مؤلفين، وانتخاب الكتاب الأفضل لتلك السنة، وضمن هذا البرنامج في إحدى العواصم العربية للثقافة، رشحت رواية لكاتب محلي بحسب تقييم النقاد كأفضل رواية لتفوز بالجائزة الأولى في الإبداع الأدبي، وكُرِّم المؤلف في المعرض، وتمت الإشادة بالرواية! إلى هنا والخبر طبعي، غير أن الغريب والظريف في الأمر أن تلك الرواية ممنوعة في ذلك البلد وغير موجودة في المكتبات! لأن الرقيب لم تعجبه أو لم يعجبه مؤلفها!

جائزة الإبداع في عاصمة الثقافة ممنوعة في تلك العاصمة.

إشكالات أمام حرية الكتاب:

ربما يقول أحدهم، وهل من الصحيح أن نترك الحبل على الغارب؟ فإن من المهم أن نحمي البلد وثقافته، وشبابه من الأفكار الوافدة غير الصحيحة والتحديات، لأن عدم الرقابة فيه تهديد للثوابت الدينية والقيم الأخلاقية!

والجواب على ذلك:

أولاً: أن التواصل اليوم على مستوى العالم أسهل من السهل، وما عاد يمكن أن تمنع الأفكار من خلال رقيب وزارة الإعلام، مع هذا الانتشار الهائل للإنترنت. والفضائيات.. فماذا تستطيع أن تصنع وزارات الإعلام؟

عام 2000 مدينة الرياض (المملكة العربية السعودية)، عام 2001 مدينة الكويت (دولة الكويت)، عام 2002 مدينة عمان (المملكة الأردنية الهاشمية)، عام 2003 مدينة الرباط (المملكة المغربية)، عام 2004 مدينة صنعاء (الجمهورية اليمنية)، عام 2005 مدينة الخرطوم (جمهورية السودان)، عن موقع: صنعاء 2004. على الإنترنت.

وثانياً: الكتاب لا يوجه بالمنع، والفكر لا يقابل بالمصادرة، وإنما يعالج بالفكر الأفضل، وهذا وحده الكفيل بالقضاء عليه. لقد رأينا القرآن الكريم وهو وحي الله المنزل وكلامه المقدس ينقل أفكار الكفار، وهي (كألفاظ) جزء من آيات القرآن يترتب عليها ما يترتب على سائر الآيات من الأحكام من عدم جواز هتكها أو مسها بغير وضوء مثلاً، وما شابه.

فالقرآن عندما يقول: وقالوا ويقولون.. فإن هذه هي أفكار الكفار ولو لم ينقلها القرآن لما عرفناها وما اطلعنا عليها. «... قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ» «وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ...» «وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ...» «وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ...» «وَقَالُوا لَوْلَا نَزَلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ».

ثم رد عليها وفندها وهذا معنى أن الفكر لا يواجه إلا بالفكر. أحد الناشطين الإسلاميين قال: كنت في دولة أوروبية في أوائل التسعينات، وأردت إصدار مجلة إسلامية، ففكرت أن أجعل الأمر قانونياً، وقلت أستصدر إجازة لذلك فذهبت لوزارة الإعلام، فلم أعثر عليها سألت عن وزارة الإرشاد مثلاً، لا توجد.. فتعجبت كيف أن بلداً لا يوجد فيه جهة تستأذن في إصدار مجلة، لقد تعودت على أن المطوية أو النشرة إذا أردت إصدارها في بلدي أحتاج إلى عشرات المراجعات، والوزارات والإدارات! من الإعلام، إلى التجارة، والمخابرات، ووزارة الداخلية، وهكذا..

ولهذا وجدنا أنه حتى الفكر الإسلامي ينتشر في تلك البلاد أكثر مما ينتشر في البلاد الإسلامية.

إن طريق هذه الأمة إذا أرادت التخلص من التخلف الفكري والثقافي هو أن تنهج منهج حرية التفكير أولاً ثم حرية التعبير عنه ثانياً ثم حرية النشر والتوزيع ثالثاً.

إن عقلية ﴿... مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ هي التي أودت بالمجتمع الإسرائيلي إلى أن صار هذا المستبد ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ﴾⁽¹⁾.

(1) هود: 98).

كيف نصل على جيل قارئ

يتناول هذا الموضوع كيفية خلق جيل قارئ مثقف في الأمة، وقبله سوف يكون لنا وقفة مع هذه الآيات المباركات لكي نتلمس بعض معانيها ونتدبر في ألفاظها وكلماتها ذلك أن القرآن الكريم كتاب هداية وتدبر وتأمل.

وكلما نظر الإنسان فيه وجد معرفة جديدة وعلماً حادثاً وأنه لا يزداد على النشر إلا طراوة وجدة. والآية المباركة تبدأ بأمر إلهي سيكون هو فاتحة الرسالة الإسلامية وبدء تكوين المجتمع الإسلامي.. وافتتاح ذلك بهذا الأمر له مغزى ومعنى عميق. فالعادة أن يهتم المؤسس بأهم الأشياء وأكثرها إلحاحاً في نظره.. فلو انشغل في أثناء التأسيس بمعالجة أمر كمالي، والتركيز على قضية قليلة الأهمية ليعب عليه ذلك.

إذا بدأ القرآن الكريم بتوجيه نبي الإسلام أن اقرأ وهو في بداية تأسيس الدعوة وفي بداية إقامة المجتمع الإسلامي فإما أن نتصور أن قضية القراءة أمر كمالي زائد وهذا يعني الاهتمام بما هو غير مهم وهو خلاف الحكمة أو نعتقد أن هذا الأمر لما كانت البداية به والتأسيس بواسطته فإن له مدخلية مهمة في تأسيس هذا المجتمع وإنشائه وهذا هو الصحيح.

بداية الإسلام وبداية التوجيه الديني هو اقرأ ورسالة ذلك المجتمع

أيضاً في شيء مقروء معجزته مقروءة ورسالته مقروءة وأهدافه مقروءة.

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ ماذا يعني باسم ربك؟

احتمل المفسرون عدة احتمالات:

الأول: اقرأ باسم ربك أي ابدأ قراءتك بلفظ البسملة والأمر كما يقولون ظاهر في الوجوب ولهذا جعل بعض المفسرين والفقهاء هذه الآية من أدلة لزوم الابتداء بالبسملة في القراءة في الصلاة ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ أي ابدأ قراءتك القرآنية بسم الله الرحمن الرحيم. فيكون هذا المعنى حجة لمن يقول بلزوم البسملة عند قراءة القرآن الكريم⁽¹⁾.

ومن المعلوم أن هناك توجهين في الفقه الإسلامي، توجهاً يقول بلزوم أن يبدأ الإنسان بالبسملة في قراءة السورة وإلا عُدت قراءته ناقصة في الصلاة وإلى هذا يذهب فقه أهل البيت عليهم السلام على الأقل في خصوص الفاتحة ويذهب إليه جمع غفير من سائر فقهاء المسلمين. بل نقل عن بعضهم أن عدم الاعتناء بالبسملة يعني حذف 114 آية من القرآن الكريم (هي بسم الله الرحمن الرحيم في أول كل سورة).

ويعتد أصحاب هذا الرأي ترك البسملة في الصلاة في قراءة القرآن وإثبات قول أمين في نهاية الفاتحة شيئاً غير مبرر لأن كلمة أمين ما يقال فيها أنها كلمة دعاء والدعاء غير ممنوع في الصلاة، هذا أقصى ما يقال فيها لكن هناك احتمال أن تكون كلمة زائدة! وأقل ما يقال في البسملة أنها مستحبة وقد يحتمل أن تكون واجبة فأمر البسملة دائر بين الوجوب وبين الاستحباب لا أحد يقول أنها حرام. ومقتضى القاعدة أن يؤتى بالبسملة وأن تترك كلمة أمين.

(1) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل 319/20.

الاحتمال الآخر أن (باسم ربك). بمعنى اقرأ مستعنياً بذات الله باسم الله (وصفاته) مثل ما تقول (إياك نعبد وإياك نستعين) أنت تستعين بالله عندما تقرأ وعندما تتعلم وعندما تتفهم تستعين بمن لديه العلم المطلق والمعرفة وكل خزائن العلم تستعين بهذه الذات المقدسة.

الاحتمال الثالث (باسم ربك) يعني أن تكون قراءتك لأجل الله، اقرأ تعلم تتقف وكل ذلك ليكن لأجل الله مثلما تقول هذا العمل يقام باسم فلان أي لأجل فلان هو الذي يراعاه.. ربك.. من هو؟ القرآن يبدأ بصفتين:

الصفة الأولى: صفة الخالقية ﴿... الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ (خالق) يعني صانع الشيء من غير أدوات، الخالق يختلف بهذا عن الصانع، فالصانع يستخدم الأدوات والوسائل ويعالج الأمور حتى يحصل على نتيجة ويصنع شيئاً فيقال له صانع، لكنما الخالق يقوم بذلك من غير معالجة وبدون أدوات فيقال خلق، والله سبحانه وتعالى صانع من غير أداة وهو بذلك خالق (الذي خلق) الله سبحانه وتعالى خلق كل من عده خلق الكائنات خلق السماوات والأرضين، خلق البحار والمحيطات خلق النبات خلق ما يرى وما لا يرى.. خلق كل هذا وهو شيء عظيم، لكن في هذا المقام نجد أن القرآن الكريم جاء بخلق الإنسان وأنه من علق.. في أماكن أخرى ذكر خلق الإنسان وعظمه وأكبره، وقال: ﴿... فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾، لكن هنا قيده بأنه من العلق ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ لماذا؟

عند التأمل في العلقوه وهي قطعة الدم الرطب التي تعلق بما تمر عليه.. وهي نتيجة عن ماء مهين اقترن ببويضة تشبهه في المهانة هذه العلقوه إذا لاحظها الإنسان هي من الضعف ومن المهانة ومن العجز بلا حدود، وليس فيها بحسب الظاهر أي مقوم من مقومات الإبداع

أو الإعجاز.. من هذا الشيء الذي ليس بشيء خلق الله سبحانه وتعالى هذا الإنسان وأوصله إلى درجة أن يقول له ربه: ﴿... إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً...﴾. هذه المسافة الهائلة من كون هذا الإنسان علقمة مهينة لا تساوي شيئاً إلى كائن يحتوي على الكم العظيم الهائل من العلم والمعرفة والقدرة الكبيرة على الإبداع وإدارة الأرض وإعمارها وهذا الكم الهائل من العواطف ومن المشاعر والقلب المتحرك..

هذه المسافة من علق إلى درجة النبوة في مثل رسول الله ﷺ هي مسافة عظيمة جداً.

كأن الله سبحانه وتعالى يريد أن يقول للإنسان تأمل في هذه الحالة التي كان فيها هذا الإنسان من علقمة لا تساوي شيئاً إلى أن أصبح بهذه المنزلة.

﴿اِقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ سؤال: أما كان من المناسب في بيان القدرة الإلهية أن يقول الذي خلق والذي رزق لا سيما وأن رزق الإنسان في بطن أمه من المعاجز، هذا البدن الذي إذا وضعت فيه أقل عضو أو قطعة جديدة يرفضها، لو أضفت إصبعاً في يدك بعملية جراحية، فإن البدن كله يستنفر لطرد هذا الشيء الغريب، ولا بد أن يستخدم الأطباء شتى الوسائل والأساليب لتثبيط الممانعة التي يبديها البدن للعضو الجديد، وإقناعه بقبول قطعة الإصبع تلك، بينما هذا الجنين يتكون في الأحشاء شيئاً فشيئاً ويكلف البدن بمسؤولية إطعامه وتخليصه من الفضلات على مدى تسعة أشهر، ويعطيه المناعة والقوة ويحميه، هذا من أعظم الخلق والرزق، مع ذلك لم يذكر هنا (الذي رزق) وإنما ذكر ﴿اِقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾..

ولعل جهة ذلك أن هناك خلقتين: خلقاً تكوينياً يصعد بالإنسان من حالة العلقه التي لا تساوي شيئاً إلى أن يكون بهذه الأعضاء والجوارح المتكاملة العظيمة جمالاً وأداءً وخلقاً آخر معنوياً وفكرياً وعقلياً يعتمد على التعليم بالقلم **«أَقْرَأُ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ»** أي رب هو؟ **«الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ»** هذا الإنسان كان من الممكن أن يبقى في حدود بدن متكامل الأعضاء الظاهرية وهذا ليس - على أهميته - له نظائر، لكن ارتفاعه في سماء العقل والمعنويات هو الأهم الذي يستحق أن يصفه الله تعالى بـ: **«... فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ»**.

(اقرأ وربك الأكرم)..ماذا صنع؟ (علم بالقلم)، وهذه خاصية للإنسان وحده، إذا علم بالقلم يقتضي أن يكون علم القراءة أيضاً. هذا من الملازمة أن يقول (علم بالقلم) أيضاً يعلم القراءة فتنتقل العلوم والأفكار والمعارف بين الناس بهذه الطريقة **«أَقْرَأُ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ»**.

وصف الله نفسه في هذه الحالة بأنه الأكرم، هناك وصف نفسه بالخالقية **«أَقْرَأُ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ»** وهنا بالأكرمية قد يكون لأنه علم بالقلم، وهذه الآيات المباركات تشير لنا إلى أهمية موقع القراءة والتعلم والتثقف في حياة الإنسان المسلم وتدعونا إلى أن نفكر في أن الخطوة الأولى في إزالة التخلف هي أن ننشئ جيلاً مثقفاً قارئاً.

وعندما نقول: جيلاً مثقفاً وقارئاً لا نقصد بذلك خصوص الكتب الدينية فقط، بل نعتقد أن المؤمن ينبغي أن يحمل ثقافة ذات آفاق واسعة مهما أمكنه ذلك، يقرأ في الأدب العالمي والعربي والمحلي يقرأ في السياسة والتاريخ.. ويقرأ في كل ما من شأنه أن يوسع آفاقه الثقافية. نعم الثقافة الدينية في رأس أولويات الإنسان فبعضها قد يكون واجباً عينياً مثل تعلم المسائل الابتلائية التي تتوقف عليها صحة

العبادات وسلامة العقائد وبعضها لا يكون كذلك.
إن حديثنا هو في اتجاه أن ننشئ الجيل القارئ المثقف، الجيل
النهج لمطالعة الكتاب، هذا العمل يمر بثلاث مراحل:

المرحلة الأولى تبدأ ببيئة البيت:

ومسؤولية الوالدين، فمن الضروري أن يفكر الوالدان في إشاعة
عادة القراءة وثقافة القراءة منذ الصغر.. وهنا تأتي العادات التي
يسلكها الأبوان لتصنع للأولاد عادات طيبة، فالوالد الذي يقرأ أمام
أولاده كتاباً لمدة من الزمان، والأم التي تصنع كذلك، فإن كلاهما
عندما ينصح أولاده بالمطالعة يعطي لنصحه مصداقية، بينما إذا رأى
الأولاد أن أباهم لا يصرف نظره عن جهاز التلفزيون من أول قدومه
إلى البيت وإلى أن يغادره للخارج أو إلى النوم، فإن ذلك يشكل
قدوة سيئة فيما يرتبط بموضوع المطالعة والقراءة، ولا يستطيع الوالد
هنا أن ينصح أبناءه بترك الإكثار من النظر إلى التلفزيون والانشغال
بما هو أكثر فائدة من المطالعة وأمثالها!

إن جزءاً كبيراً من التربية هو محاكاة وتقليد، ولا يحتاج ذلك إلى
كثير كلام وتوجيه. وإن كثيراً من وقت الناس يضيع في الانتظار
تارة، وفي قطع المسافات أخرى من دون أن يستغل بنحو نافع.
لاحظ أن قسماً من مسافري الحافلات أو القطارات لمسافات
طويلة قد لا تقل عن ثمان ساعات مفيدة لا يستفيدون من هذا
الوقت، ولو أريد استغلالها في القراءة لعادت عليهم بفوائد كثيرة.
بينما الملاحظ في البلاد الغربية أن المترو وقطارات الأنفاق
ومسافاتها ليست بذلك البعد من محطة لأخرى، ولكن كثيراً من
الراكبين فيها يستفيدون من هذه الفرصة في مطالعة الكتب.

وهكذا الحال عندما ينتظر الإنسان دوره في مواقع الانتظار مثل مواعيد الطبيب، والتي قد لا يتفق فيها دقة الوقت والتقدير، فترى الواحد يظل منتظراً في حالة متوترة وقلقة، ينظر إلى الذهاب والقادم، ويترك الباب على الطبيب بين فترة وأخرى.. لو كان قد حمل معه كتاباً وجلس ينظر فيه منتظراً دوره لو قرّ على نفسه ذلك التوتّر، وانتفع بما مرّ عليه من وقت..

وهذا إنما يحصل من خلال التربية والمحاسبة، فإذا كان الوالدان يقومان بمثل هذا في مثل هذه المواقع أخذ الأولاد نفس الطريقة والتزموا بها وساروا عليها.

عندما نريد أن ننشئ جيلاً قارئاً فلا بد وأن نبدأ من داخل البيت.. أن نأخذ أبناءنا الصغار وبناتنا إلى مكتبة لبيع الكتب ونرغبهم في شراء ما يريدون، وأدعهم يختارون ما يرغبون، وفي الفترة الأولى لا ينبغي أن نتدخل كثيراً في اختياراتهم، المطلوب هو أن تتكون بينه وبين الكتاب علاقة وأنس ومحبة.. فإذا تمكنت منه عادة القراءة وصار الكتاب أنيساً له وجليساً له ذاك الوقت يمكن برمجة قراءته وتوجيهها.

المرحلة الثانية بيئة المدرسة:

ويأتي دور المدرسين والمعلمات حيث ينبغي أن يفكر هؤلاء في تشويق الطالب والطالبة إلى القراءة والمطالعة، فإننا قد نلاحظ تثبيطاً في بعض الأحيان، فربما جاء طالب إلى المدرس قائلاً: قرأت القصة الفلانية! فيجيبه هذا المدرس لماذا تضيع وقتك في هذه الأمور؟ احرص على مذاكرة دروسك وتوجه إليها فعندك ضعف في هذه المادة وتلك.. وقد يكون المدرس منطلقاً من الحرص على مستقبله

الدراسي، ولكنه يمارس دوره بشكل غير صحيح. إنه عندما يشتاق إلى القراءة سيقراً الكتاب الخارجي والقصة كما سيحرص على مطالعة درسه والتشجيع خير وسيلة تربوية.

في كثير من الأماكن يعتبر التربويون مكتبة الكتاب المدرسي من الأساسيات في كل مدرسة، وإذا نظرنا إلى الإحصائيات سوف نجد تشجيعاً لوجود الكتاب الخارجي في المدرسة، سواء في صورة مكتبة عامة، بل وحتى مكاتب للبيع في هذه المدارس. ففي إحصائية تقول إنه من بين (35) ألف مدرسة في بريطانيا يوجد في (10) آلاف مدرسة منها ركن لبيع كتب رخيصة الثمن. وإن أكثر الطلاب في هذه المدارس يوفرون جزء من مصروفهم لشراء ذلك الكتاب الرخيص الثمن منه.

فدور المدرسة ودور المعلم مهم في الجهة.

وكذلك بيئة الأحياء والمناطق ففي كثير من المجتمعات يجد البعض أن من شأنهم أن يصنعوا مكتبة كي يطالع فيها أبناءهم ويعتبرون هذا الأمر من مسؤولياتهم، وفي ديننا الكثير من الحث على نشر العلم الذي وعد عليه الإنسان بالثواب الكثير. غير أن الثقافة السائدة في بعض مجتمعاتنا لا تشجع على هذا ولا تعتبره من القربات الإلهية، فلو أراد أحدهم أن ينشئ مكتبة بعنوان أنها صدقة جارية، ربما يعترض عليه البعض ويقال له أن يتحرك لإنشاء حسينية أو مسجد.. ولكل فضله، ولكن هذا نشر للعلم أيضاً ونشر المعرفة فيه ثواب كبير.

ينبغي التشجيع على القراءة في مجتمعنا، وأحد أشكالها أن نعمل مسابقات في قراءة الكتاب، بحيث يعين كتاب أو عدة كتب، لكي يقرأ ضمن أعمار معينة، ثم تكون هناك جوائز تشجيعية.

عندما يأنس الشاب بالكتاب نصنع بالتدرج جيلاً قارئاً جيلاً
مثقفاً ويرتفع بذلك مستوى الأمة. وفي غير هذه الصورة سيكون
العقل العربي مهتداً.

لقد قال د. محمد جابر الأنصاري كلاماً قيماً في هذا الشأن:
(إن هناك تهديداً خطيراً على عقل الأمة، وهو من أعظم الجنايات
على عقل الإنسان العربي وهو أن يستبدل مطالعة الكتاب بمطالعة
القنوات الفضائية، ولا يقصد هنا القنوات الخلاعية، وإنما دون ذلك
وهو ما يسمى بثقافة الإمتاع السطحية)، كالأفلام غير الهادفة،
والكوميديا التي يراد منها الضحك للضحك، ولا نريد هذا أن نمنع
بالمطلق الانفتاح على هذه القنوات ففيها قسم نافع من البرامج
السياسية أو العلمية أو الثقافية.. لكن أن تتحول إلى (برنامج) يحتل
النسبة العظمى من وقت هذا الشاب وأن تكون مصدر ثقافته
الوحيد، فهذا يشكل كارثة بالنسبة له ولأمتة على السواء..
وذلك أن من أوليات الإعلام الفضائي أن يكون ممتعاً وجذاباً،
ولا ينسجم هذا دائماً مع عمق المحتوى وقوة المادة.

في مقابل ذلك يؤكد القرآن على القراءة: ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ
الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي
عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾.

الخرافة والتأمل العقلي

كيف نتعامل مع ظواهر الخرافة في المجتمع؟

ركّز دين الإسلام تركيزاً عظيماً على الجانب العقلي وأعطاه الدور الأسمى، وجعل أحكامه أحكاماً قاطعة، بل وجّه الآيات القرآنية وخاطب بها أهل العقل كما في قوله تعالى: «هُدًى وَذِكْرَى لَأُولِي الْأَلْبَابِ»⁽¹⁾ وفي قوله تعالى: «... إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ»⁽²⁾ في سبعة مواضع و«... إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ»⁽³⁾ في ثمانية مواضع.

فالذي ينتفع بهذا التذكير هو ذلك العاقل الذي يتدبر في تلك القصص والحوادث وينتفع بها في حياته. بينما من يعيش عالم الخرافة، ويبقى في فضاء الوهم لا ينتفع حتى بالهدى القرآني والتعليم الإلهي، ما لم يحرر نفسه من الخرافات.

تظهر في مجتمعاتنا المسلمة بين آونة وأخرى بوادر وحالات خاطئة يؤمن بها قسم من أفراد المجتمع ويستجيبون لها وبالتالي تُكرر وتُعاد، ولو تم التعامل معها بتعقل لُقضي عليها وانتهت. نشير إلى بعض هذه الأمور - مع أنها غير محصورة فيها - حيث يبدو أن

(1) غافر: 54.

(2) الجاثية: 13.

(3) الرعد: 4.

المشكلة أكبر من هذا المنشور والمعروف وأنها تتشكل في صور كثيرة - لكننا ننقل بعض هذه الصور لكي نلاحظ من خلالها حجم المشكلة، التي انتقلت من دائرة النساء الأميات إلى أصحاب الكفاءات بل إلى القضاء الشرعي:

* فإن محكمة في رأس الخيمة قد أصدرت حكماً قضائياً بسجن زوجة لمدة 3 شهور لاعترافها بأنها قد سحرت زوجها، وإلى هنا قد يبدو الأمر مقبولاً ومنطقياً، لكن أن تعرف أن من بين الإجراءات التي اتخذتها المحكمة، الاستماع إلى شهادة جني موجود في جسد زوجها. هذا هو غير المنطقي!

* وقال رجل سعودي يعالج بالرقية الشرعية إن جنياً حث امرأة كان يقوم بعلاجها على قتله، لكنها أخطأت في إطلاق النار عليه وقتلت زوجها. وكانت جريمة قتل ارتكبتها سيدة سعودية (40 عاماً) في داخل عيادة للعلاج بالرقية الشرعية بمنطقة العرجاء بمحافظة الطائف، وسقط ضحيتها زوجها، قد أثارت ردات فعل كبيرة ودفعت للتساؤل عن دوافع الجريمة.

* لقد أشارت دراسة قام بها محمد عبد العظيم بمركز البحوث الجنائية في القاهرة أن 250.000 مشعوذ يمارسون أعمال السحر والشعوذة في عموم الدول العربية، وأن العرب ينفقون زهاء 5 مليارات دولار سنوياً على هذه الأعمال، وأن الفقراء في مصر ينفقون 10 مليارات جنيه سنوياً على قراءة الغيب وفك السحر والعلاج من الجان.

كما كشفت - من جهة أخرى - الحملات الأمنية لمتابعة العمالة السائبة في السعودية عن وجود بيوت وأوكار متخصصة في أعمال السحر وما يرتبط بالجان وأن غالبية مرتاديه هم من عامة

المواطنين، كما أشارت دراسة نشرتها صحيفة عكاظ اعتمدت على استبيان شمل 500 ربة بيت ممن تعاملن مع خادمت في منازلهن ورؤيتهن حول تعامل هؤلاء الخادمت مع السحر، فكانت النتيجة أن 56% من ربات البيوت يعتقدن بقدرة الخادمة على ممارسة أعمال سحرية ضارة لهن أو لأفراد الأسرة، بل وأكثر من ذلك فإن 21% من هؤلاء قد أكدن على حدوث تجارب فعلية مع السحر التي مارسته الخادمت، إن هذه الدراسات - وبغض النظر عن دقة مدلولاتها العلمية - قد أشارت إجمالاً إلى ما نرمي إليه وهو عمق القناعة بالسحر والجن وتأثيره على سلوكياتنا وهو ما يستدعي وقفة تأمل للبحث والدراسة، فمحرابة الساحر والمنجم والعراف ليست السبيل إلى اجتثاث هذه الممارسات والسلوكيات الخاطئة، فذلك لن يتحقق إلا بمزيد من جهود التوعية وتصحيح القناعات، وخاصة لدى البعض منا الذين ذهبوا بعيداً في رسم العلاقة الممكنة مع الجن حتى وضعوا تصوراً دقيقاً لكيفية زواج بني البشر بهم⁽¹⁾.

وتحت عنوان: انتشار ثقافة الجن وسيطرة الخرافة.. على المجتمع المصري كتبت مجلة إيجيبيتي على الإنترنت:

(274) خرافة.. هي إجمالي الخرافات التي تحكم عدد كبير من المصريين وتسيطر على كل شيء في مصر.. نعم 274 خرافة يستيقظ عليها النائمون.. وينام عليها المستيقظون.. 274 خرافة سيطرت على الجهلاء والمتقفين.. الحكام والمحكومين..

الدراسة الميدانية التي أجراها فريق بالمركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية والتي شارك فيها الباحثان "نجيب إسكندر

(1) مقال في صحيفة اليوم السعودية 2005/10/27.

ورشدي منصور" فجرت العديد من المفاجآت حيث توصلت إلى أن 63% من المصريين يؤمنون بالخرافات بينهم 11% من المثقفين والرياضيين والفنانين والسياسيين.

وهي نفس النتيجة التي خرج بها الباحث محمد عبد العظيم في دراسة علمية له حيث توصل إلى أن 31% من المصريين بينهم من يحتل المناصب العليا يؤمنون بتقمص الأرواح وأن الاعتقاد بالجان والعفراريت أصبح من المعتقدات الأساسية في حياة المصريين الذين يعتقدون بسيطرة الجن على تصرفاتهم وهناك أكثر من مليون و200 ألف مواطن في مصر يعتقدون بتصنيف الجن إلى أزرق وأحمر كما يعتقدون أن الحذاء القديم الملقى بالشارع هو الدواء الوحيد الناجح للوقاية من الجن والعفراريت الذين يسكنون المقابر والمنازل المهجورة وأن 75% من المصريين يتحاشون ضرب القطط والكلاب ليلاً لاعتقادهم أن العفراريت تتشكل في أشكال هذه الحيوانات كما يعتقدون أن الجان قادر على الزواج من النساء والعكس بل والإنجاب منهم..

وقالت الدراسة إن 60% من النساء يؤمن بضرورة وضع كف في شعر الطفل حتى لا يصاب بالحول وأن 47% من المصريين يؤمنون تماماً بأن رش المياه وراء الشخص المتوفي يمنع موت أحد ورائه وأن المقص المفتوح يجلب النكد.. ووضع المقص تحت رأس النائم يمنع الكابوس وهناك ما هو أطرف وأغرب من ذلك حيث يعتقد 60% من المصريين أن حرق الخنفسة في الشقة غير المسكونة يجلب لها السكان وأن تعليق حذاء طفل على جدران المنزل يجلب السعادة لسكانه..

أيضا دراسة الباحث محمد عبد العظيم أكدت على أن 30 ألف شخص في مصر يدعون علم الغيب وقراءة الفنجان والكف كما

يؤمن 70% من المصريين بقدراتهم الخارقة في معرفة ما يخبئه لهم القدر من أحداث فضلاً عن قدرات أخرى منها علاج المرضي بالأرواح.

الباحثة إكرام زايد أيضاً، قالت في دراسة لها حول الخلفة إن 60% من النساء ترين أنه على المرأة التي يتأخر حملها أن تذهب إلى "الدحرجة" لتدحرج سبع مرات لعلها تحقق أملها في الإنجاب فالمرأة التي لا تنجب في الشرقية مثلاً تقوم بزيارة تمثالين لرجل وامرأة وتحتضنهما تحت ملاءة ثم تستحم وتكسر زيراً من أجل الإنجاب..

في واحة سيوة هناك ضرورة لأن تستحم العروس في نبع من الماء ليلة عرسها اعتقاداً من الأهالي بوجود قوة تكسبها الخير والجمال وتبعد عنها الشر كما يؤمن 93% من نساء الريف المصري بما يسمى بالمشاهرة وهو عدم دخول أي رجل حليق الذقن على المرأة بعد ولادتها بـ 40 يوماً وكذلك عدم الدخول بلحم غير مطهي وإلا منع عنها اللبن أو تتأخر في حملها التالي.

وأن 62% من البنات في مصر يؤمن بضرورة عدم التحديق في المرأة ليلاً حتى لا يفوتن قطار الزواج.. وأن أكثر من 50% منهن ما زلن يعتقدن في صحة قرص ركبة العروس في ليلة دخلتها حتى تصيبهم العدوى ويتزوجن في وقت قريب بعدها ومن تلحس بطن الضفدعة تستطيع الزغردة. وأن أي بنت تأكل سمكاً ولبناً يوم الأربعاء تجن فوراً.

وأن 90% من المصريين حسب ما أورده البحث يؤمنون أشد الإيمان وحتى الآن بخرافة (الربط الجنسي) بين الأزواج. وهو إيمان لا يفرق بين أهل الريف وأهل المدينة وأنه عليهم استخدام - الأحجبة - وبالفعل يستعملها 80% من المصريين في أغراض كثيرة منها، الحماية من المرض، وإبطال تأثير العفاريت واستمالة قلب المحب،

والنجاح في العمل إلخ.. ولا يخشى المصريون من شيء قدر خشيتهم من القطة السوداء حسبما أقر 50% والذين ينظرون إلى القطة السوداء باعتبارها رمزاً للتشاؤم.

أيضاً يؤمن المصريون بأن الحجاب يقي من عين الحسود وأيضاً وضع قليل من الملح في كيس يعلق في رقبة الأطفال وكذلك ناب الذئب أو ناب الضبع أو رأس الهدهد.

وطرق الوقاية التي وضعها المصريون للوقاية من الحسد كثيرة. منها البخور "وخمسة وخميسة" والعروسة الورقية التي يتم ثقبها بإبرة الخياطة بأسماء من يريدون منع حسدهم، وذلك بقول من عين فلان وفلان إلى أن تنتهي قائمة الأسماء. ثم يتم حرق هذه العروس الورقية والاحتفاظ بناتج إحراقها. ورسمه على شكل صليب على جبهة الشخص المحسود. وغيرها من الخرافات التي تشيع في مصر، ولعلها توضح من واقع الدراسات الميدانية التي عرضنا لها، أن الخرافة في مصر لم تعد خرافة أفراد وإنما تقف وراءها أيدي مجهولة تحترف تغييب الوعي ودفن عقل المصريين في ثلاجة التخريف⁽¹⁾..

بل وصل الأمر في استغلال العقول إلى القول ببيع الجن، فقد ذكروا أن شخصاً في مدينة (...) يبيع الجني بمبلغ (70000) ريال، وأنه يملكه المشتري لكي يقوم الجني بكل ما يريده ذلك المشتري، وأن أرباب المال الحمقى يشترون منه الجن!

* تفشي ظاهرة توزيع الأوراق التي تحتوي عبارات تحذر من عدم تكثيرها: عندما نذهب لزيارة مسجد أو مشهد من الأماكن المقدسة تجد أحياناً في بطون كتب الأدعية أو القرآن أوراقاً تذكر أن

(1) إيجبتي على الإنترنت.

فلاناً من الناس مثلاً رأى الإمام الفلاني فقال له كذا، أو أن ذلك الإمام أمر تلك المرأة بأن تقول للنساء أن لا يفعلن كذا... وأن الذي يفعل ذلك يحدث له شيء ما.. وأحياناً توزع تلك الأوراق ويلقى بها في وسط البيوت.

أو أن امرأة رأت في المنام نساءً كأنهن من الجنة! جئن إليها وجلسن معها على سجادة تملكها، وبعد ذلك نرى الازدحام على تلك السجادة للتبرك بها أو بالماء الذي غُسلت به! وهكذا نلاحظ تعدد أشكال تلك الشائعات..

كذلك ما نلاحظه من ربط الأمور والقضايا الحياتية بالسحر والجن في ربط لا ارتباط فيه! فأنت ترى. فتجد بعضهم يفسرون فشل "فلان" من الناس في دراسته أو في عمله بأنه "معمول له سحر أو عمل"، لا لأنه كسول أو مهمل!

والزوجان اللذان لم يستطيعا أن يبنيا علاقة طيبة بينهما، يرمون السبب على شيء خارج حياتهم فيقولون قد "عُمل لهما عمل"! عوضاً عن التفكير في الحل الحقيقي المبني على وصف المشكلة والاعتراف بها ومن ثم العمل على حلها من خلال نمط جديد من التعامل، والأخلاق، أو - في بعض الحالات - الرجوع إلى متخصصين نفسيين.

وكذلك الفتاة التي لم تتزوج بعد، تتصور أن عدم زواجها ناشئ من أن أحدهم قد عمل لها "عملاً" لكي لا يأتيها الزوج! بينما مشكلتها قد تكون جزءاً من مشكلة العنوسة المتزايدة في مجتمعنا والتي لها أسبابها الموضوعية.

وبذلك يدخل الإنسان في سلسلة من العُقد النفسية باعتقاده أن عنده "مس أو جن".

وبالتالي يسعى لعلاج المشكلة في مسار خاطئ. فليس من الصواب أن يُقال عن كل إنسان أصابته بعض القضايا النفسية أو الحالات أنه "ممسوس أو مسحور"!

وما أكثر مظاهر الاستخفاف بالعقول في مجتمعاتنا، لدرجة أن بعض البرامج التلفزيونية تستقبل الاتصالات وتساؤلات المشاهدين مثل: (اقرأ لي كفي.. أنتم عندكم غيمة فلكية، عواصف فلكية)!! ومؤخراً قنوات فضائية لـ (القراءة) على المسحور أو الملبوس!! وأخيراً قنوات فضائية متخصصة في هذه صناعة الوهم وتكريسه وادعاء علاجه.

هذه الظواهر في الواقع استجابة خاطئة لأمر لا أساس لأكثرها. يقول القرآن الكريم عن قوم فرعون: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَاَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾. والإسلام لم يأت إلا من أجل إعلاء شأن العقل والقضاء على مثل هذه النماذج الخرافية.

ما هي أسباب انتشار هذه الأفكار الخرافية؟

في البداية لا بد أن نلاحظ أن انتشار الخرافات والأوهام لا يعترف كثيراً بالمستوى العلمي، فلطالما رأينا أشخاصاً على مستوى كبير من التخصص الأكاديمي ومع ذلك يكونون من المنخرطين في مسار الخرافة العقلية!

ولكننا نلاحظ أيضاً أن انتشار تلك الأفكار يكون أكثر في صفوف الفئات ذات المستوى العقلي البسيط، ويزداد بصورة أوضح في صفوف النساء في مجتمعاتنا المسلمة - وإن كانت توجد في غير مجتمعات المسلمين أيضاً لكن حديثنا موجه إلى هذه الفئة - فبحسب المشاهدات والمتابعات نحن نجد أن الفئة التي تتعاطى معها بنحو أكبر هي فئة النساء، ولعل هذا راجع إلى أن التخلف الذي سيطر على

أجيال أمتنا الإسلامية كان له آثار سيئة متعددة بالنسبة للجميع لكن أثره بالنسبة للنساء في حجبهن عن العلم والمعرفة، وإعاقة انطلاقهن في عالم الحياة المعاصرة كان أكثر من مثيله في صفوف الرجال، وليس أدل على ذلك من أننا نجد أن التعليم في عامة البلاد المسلمة بدأ في صفوف النساء بعد فترات طويلة - نسيباً - من بدايته في صفوف الرجال. وتهيأت الظروف للإطلاع على الثقافة في صفوف الرجال بنحو أكثر مما هو في صفوف النساء، وكان من الطبيعي - لهذا السبب - أن تكون نسبة الأمية هنا أكثر مما هي عليه هناك. مع أننا لا نربط بين التصديق بالخرافات والأوهام وبين التعلم، إذ قد يوجد من المتعلمين من يؤمن بهذه الخرافات كما أشارت إليه دراسة مذكورة آنفاً.

كذلك فإنه لما كان الجانب العاطفي في جنس النساء يغلب على الجانب العقلي - ليس في كل النساء بالضرورة - ولأنهن أيضاً أسرع إلى حالة الخوف، فهن يتقبلن تلك الأمور باعتبارها صحيحة وحقائقية ولها آثار وعواقب..

لكن بنحو العموم يمكن الإشارة إلى بعض الأسباب:

1. عدم تحكيم العقل:

هذا العقل الذي خلقه الله في الإنسان وجعل الإنسان به أسمى المخلوقات، وبدونه يكون أدنى من الحيوان، إذ إن قيمة الإنسان في عقله... وذلك لقدرته على الموازنة والتقييم، وقدرته على اكتشاف الحق من الباطل.

عندما تقرأ في تلك الأوراق مثلاً "عندما تقوم بتوزيع هذه الورقة سوف تصبح غنياً!" وتبدأ بالتفكير في ذلك الأمر وتتدبر في

القانون الذي وضعه الله سبحانه وتعالى وجعله أساساً للكون وهو اقتران النتائج بالأسباب في قوله تعالى: «هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ»، ستفطن إلى أن تلك الشائعة لا أساس لها من الصحة.

وما نراه اليوم من الانشغال بما يسمى بـ (فكّ السّحر أو العمل) ما هو إلا عقدة جديدة تصدّ الإنسان عن التفكير في حل المشكلة ضمن الطريق الطبيعي. فهذه القضايا لها مسارها الطبيعية، والمشاكل النفسية تُعدّ كالمشاكل البدنية، فكما أن هناك طبيباً بديناً، هناك أيضاً طبيب نفسي، ولا بد أن يذهب الإنسان للعلاج لو أراد الشفاء. فهذا هو الطريق الطبيعي والاعتيادي الذي أمرنا بالذهاب إليه.

أنت إنسان تستطيع أن تسمو بمستواك العقلي إلى درجة أعلى من الملائكة، ما هذا الإسفاف والاستخفاف والانحدار؟! وأي استخفاف بقوانين الله في الرزق والسعي هذا؟! لهذا نجد أن معظم الفئات التي تصدق تلك الشائعات هي الفئات ذات العقل الأقل.

2. التلقين:

إن جزءاً مهماً من المعلومات التي تؤثر في سلوك الكثيرين من الرجال والنساء هي المعلومات التلقينية التي تسود في العائلة أو المجتمع الذي يعيش فيه الإنسان. ولهذا نجد أن هناك تفاوتاً في المعلومات بحسب اختلاف المجتمعات والأسر.

ومن الملاحظ أن قسماً كبيراً من الناس لما لم يجدوا أسباباً ظاهرة لكثير من القضايا - كما سيأتي الحديث عنه - فقد افترضوا أسباباً

بجهولة (غائبة كالجن، والأرواح، والسحر،.. إلخ) وأعانهم على هذا التفسير الخاطئ من كان يريد الاستفادة من (علاجها) كمن يمتهن الشعوذة والسحر أو حتى قراء الرقية، وتكرست هذه الأخطاء وتحولت إلى قواعد في المجتمع فإذا لم تحمل المرأة مثلاً قالوا لها عليك أن تضعي شيئاً من الرز والزبد والسكر على باب البيت (عدرة) كما يسمونها، لكي يأكلها الجن أو ينشغل بها عن منع المرأة المسكينة عن الحمل!

ثم ورثت هذه (القواعد - والعادات) عبر التلقين للأطفال والنساء، وكرسها (خوف) البعض من هؤلاء من حدوث ما لا ينبغي! وخصوصاً أن ممارستها لا تضر أحداً فيما يرون فتحولت إلى ممارسة اجتماعية في هذه الطبقات.

ولأنها أمر تلقيني، فهي غالباً ما لا تخضع للمستوى العلمي، فقد تجد امرأة جامعية، ومع ذلك هي في زواجها تتعامل بهذه الصورة.. فلا بد لزواجها أن تقرر ركة العروس الفعلية وهي تعتقد أن ذلك سيحقق لها الزواج مع أنه لا ارتباط أصلاً بين الأمرين..

3. استنفاد الأسباب الظاهرية:

في حياة الإنسان يجد أمامه نتائج معينة ثم يفتش عن أسبابها الظاهرية، فلا يجد لها سبباً ظاهراً.. امرأة تتمنى الزواج، وهي في سن مناسبة وربما تكون جميلة أيضاً، بل وقد تكون عاملة، ومن أسرة جيدة.. فلماذا تأخر زواجها؟ لا سبب ظاهر مفهوم عندها!

وزوجان كانا منسجمين وسعيدين فما الذي تغير وأصبح الزوج لا يحب زوجته، أو الزوجة لا تطيقه؟ مع أنه لا شيء - بحسب الظاهر - قد تغير فيهما؟ لا يوجد عند الزوجين سبب ظاهر.

ومثلهما من تأخر الحمل عندها، فلا تجد سبباً ظاهرياً، خصوصاً مع عدم الرجوع إلى الطبيب المتخصص في هذا المجال، فتفكر أن هناك سبباً غيبياً غير معروف هو الذي أنتج هذه النتيجة.

إن الخطأ يكمن في أن مثل هؤلاء لم يراجعوا المتخصصين للبحث عن الأسباب والعلاج، ربما لأجل أن لا يشعروا ولا يُشعروا الآخرين بأنهم مرضى.. ولا سيما لو ارتبط الأمر بقضية نفسية حيث تقترن عند الكثير بفكرة الجنون، فهم يهربون من هذا إلى ما هو أسهل، وهو اللجوء إلى تلك الخرافات والأوهام.

"أن الخوف من وهم المرض النفسي من الأسباب المهمة، حيث إن كثيراً من الناس يلجأ للدجالين خوفاً من أن يوهم هو أو أحد أبناؤه بأنه مجنون، وهذا يؤثر على مستقبله من ناحية الزواج والعمل والحياة الاجتماعية، فمن السهل القول إنه تلبس فلان أو فلانة جني، ومن الصعب القول إنه مريض نفسي، فالجن قوة خارقة تستطيع أن تفعل ما تريد أما المرض النفسي فهو الجنون"⁽¹⁾.

4. إحالة على المجهول وترك الأسباب القريبة:

يوجد في الإنسان غريزة الدفاع عن الذات، ولهذه الغريزة تظاهرات متعددة، الكثير منها مفيد، حيث إنه بهذه الغريزة يكتشف طرق بقاءه على قيد الحياة، ولها أيضاً بعض التظاهرات التي - بسوء التوجيه لها - تنتهي إلى إنكار مسؤولية الإنسان نفسه في ما يحصل له. فبينما يوجه الدين الإنسان إلى أن يتوجه إلى نفسه فيصلحها وذلك أن (ميدانكم الأول أنفسكم).

(1) سمية درويش: إيلاف 12 أكتوبر 2005 www.elaph.com.

في المقابل تساهم التربية الخاطئة في إقناع الشخص بأن ما يحصل عليه من نجاح هو بفعل نفسه ولكن ما يحصل له من إخفاقات ومشاكل وأمراض فليس إلا لأن (الغير) قد فعلوا له ذلك. فبدأ بإلقاء المسؤولية على الأقربين إليه، ثم المخالفين الظاهريين، فإن لم يجد أحال الأمر على مجهول، فالجن هو الذي يعكس حياته، والأعداء السريون هم الذين (يعملون) له الأعمال ويجهزون له السحر.

إن الذي لا ينجح بشكل جيد فلا يترقى في عمله، يعتقد أن رئيسه ضده في البداية، ثم إذا لم يجد ذلك معقولاً، ألقى باللائمة على (حظه) الذي هو شيء مجهول، بعيداً عن تفكيره في ضعف إنجازه.. هذا يمكن علاجه وأما (الحظ) السيئ في نظره فلا علاج له.. أو يلقيه على أي شيء آخر من (كتابة) الآخرين له، أو سحرهم إياه.. أو غير ذلك.

5. مجتمع القمار والحلول السهلة:

بينما وضع الله سبحانه في الكون سنناً وربط النتائج بمقدماتها المعقولة، فربط الرزق بالسعي «وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى» والإنتاج بالكسب والعمل «... لَهَا مَا كَسَبَتْ...» وأن الإنسان يرى في دنياه وآخرته ما عمله «فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ»، وأمر للعلاج بمراجعة الطبيب، وللنجاح بتعاطي أسبابه، وأن الأمر ليس بالأمني «لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ...».

في مقابل تسود في بعض المجتمعات فكرة المقامرة، ليس فقط على المستوى المالي، الذي حرّمه الدين ونهى عنه، وإنما المقامرة في النظر إلى الحياة، فبعض المجتمعات تريد الوصول إلى أفضل النتائج

بأسهل الطرق في زعمها.. فالنصر تريده بالدعاء لا بالجهاد، والتقدم تريده بالغيب لا بالشهود والسعي، والرزق بالحظ أو الأحرار والأحجية.. وهكذا.

ومن ذلك أن بعض أفراد هذه المجتمعات تريد النتائج من غير عناء مقدماتها، فتخسر أموالها عند عدد من مرتزقة هذه الحالات، الذين يستغلون في هؤلاء (اللامعقول) ويسلبونهم ما لهم في مقابل إعطاء الوهم.

6. الخلط بين الإيمان بالغيب وبين التعلق بالوهم والخرافات:

يأتي بعض هؤلاء - بسذاجة - فيقول: إننا نؤمن بما جاء في القرآن من السحر والجن والحسد.. إلخ. ولذلك نعتقد بهذه الأمور ونمارسها..

لقد غفل هؤلاء عن أن القرآن عندما يتحدث عن أصل تلك القضايا باعتبارها هامشاً محدوداً جداً في الحياة (يرشدك إليه قلة الحديث عن آياتها، وعدم وجود تكاليف شرعية باتجاهها إلا نادراً)، لم يتحدث عن أن هذا الموجود عندنا من (تغوّل) هذه الممارسات، وكذب أكثرها، ولم يتعرض إلى الواقع الخارجي، وأنه حاصل أو لا.. لقد تحدث عن الجن باعتبارهم أمماً كانت محلاً للتكليف الشرعي وأرسل لهم الرسل لكي يصل لهم الوحي الإلهي بطريقتهم.

ولم يتعرض القرآن الكريم إلى أمور التلبس بالجن، أو استشهادهم في قضايا ودعاوى، أو ما شابه.

إننا نؤمن بالغيب وهذه من صفات المؤمنين أنهم (الذين يؤمنون بالغيب) لكن هل من شروطهم وصفاتهم الإيمان بأن فلاناً ملبوس أو ممسوس بالجن، أو أن فلانة مسحورة؟

7. عدم الرجوع إلى أهل الاختصاص:

إن لكل مشكلة جهة اختصاص خيرة بأسبابها ونتائجها، ينبغي أن يتعود الناس على الرجوع إليها، ففي المسائل الطبية النفسية، هناك متخصصون.. إذ إن العلم كما تقدم في المجالات المختلفة فلا شك أنه قد تقدم بنفس النسبة في معرفة الأمراض النفسية، واستطاع في كثير من الحالات رصد علاجاتها.

وفي المشاكل الاجتماعية، هناك مؤسسات ومستشارون وعلماء في هذا المجال، يدرسون السنوات حتى يصبح الواحد منهم ذا قدرة عالية على المعالجة.. فينبغي لمن يعاني مشكلة ترتبط بهذا الجانب سواء في علاقاته الزوجية أو الاجتماعية المختلفة أن يرجع إلى هؤلاء.

وفي المسائل التي ترتبط بالجانب الديني ينبغي إرجاع الأمر إلى الجهة الدينية المتخصصة⁽¹⁾، وإلا فإن عدم ذلك قد يُوقع الإنسان في المحذور الشرعي⁽²⁾. والتفريق بين الأمر الغيبي الثابت - والذي هو جزء من الاعتقاد الديني - وبين الخرافة والأسطورة، يحتاج إلى جهة متخصصة، عارفة بحدود كل منهما... وهي الجهة الدينية.

لذا ينبغي أن يُرجع في هذه الأمور إلى الجهات الدينية من المراجع الكرام والعلماء الإعلام. قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَدَّعُوا بِهِ وَكَوَرُودُهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي

(1) مع أننا نلاحظ أن بعض الفئات الدينية هي جزء من المشكلة، ويجدون فيها سوقاً رائجة لعرض بضاعتهم الباطلة فلا بد من التدقيق في هذا الجانب، بحيث يتم الذهاب إلى غير تلك الفئة المتورطة في هذه التجارة الفاسدة.

(2) وهو حرمة الذهاب إلى الساحر والكاهن، كما روي عن العصومين: (من ذهب إلى كاهن أو ساحر فقد كفر بما أنزل على محمد).

الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلَّهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ
وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا⁽¹⁾.

آثار انتشار الخرافات ونتائجها السلبية:

1. البعد عن حالة الإنتاج والتفكير والفاعلية، وإهمال تطوير

الذات والمجتمع:

فما الداعي إلى الإنتاج والفاعلية إذا كان يمكن أن يحصل الإنسان على النتائج المترتبة من خلال الدعاء، والأحجبة والأحراز، ولماذا يسعى في حل مشاكله بالطرق الاعتيادية، ما دام يمكن ذلك من خلال تلك الطرق الوهمية..

لماذا يسعى للطبيب مع أنه يمكن أن يشفى بماء (مقري) عليه؟ ولماذا تفكر في حل مشاكلها مع زوجها إذا كان المعالج (!) سوف يفك لها العقدة ويزيل (العمل)؟ وما الذي يدعو الرجل إلى معالجة نفسه من أعراض الضعف الجنسي مثلاً ما دام الأمر يرتبط بغيره؟

2. تشويه صورة الإيمان بالغيب:

إن هذه الظواهر تعكس صورة سلبية وخاطئة عن سائر القضايا الغيبية الصحيحة مما تؤدي إلى الخلط بين الخرافة والغيب، وهذا ما يدفع بالإنسان المسلم إلى عدم الإيمان بالغيب بصورته الصحيحة. ولذلك نجد الكثير من الدعوات - من كُتّاب وباحثين غير متدينين - ضد الإيمان بالغيب ويفسرونه بأنه خرافة وأنه سبب في تغييب العقل (وذلك لأنهم لا يفرقون بين الخرافة والغيب الحقيقي).

(1) النساء: 83.

عندما تسود في المجتمع مثل هذه الظواهر، فإن القضايا الغيبية الثابتة والصحيحة والتي نتعبد بها، تصبح مُشوَّهة، ويصبح الإيمان بها في محل الشك.

3. سوء استغلال بعض الأفراد للضحايا:

إن من نتائج شيوع هذه الأمور وتصديقها، أن يجد بعض الخاطئين فيها طريقاً للاستغلال المالي أو الجنسي.. وغير ذلك. وتتناقل الأخبار في أكثر من بلد ومكان عن أنواع من الاستغلال الجنسي لمن يزعمون أن بإمكانهم القيام بما يُسمى بـ (فك السحر أو تخريب العمل)، ويُؤسَف للبعث من الفتيات اللاتي يقعن في هذه المصائد، وهذا مما يُعرفنا بحكمة الإسلام الذي منع الاختلاء والخلوة.

لقد تحدثت أكثر من وسيلة إعلامية عن تجارب مرة وقعت فيها نساء، مثلما نقلت صحيفة الرأي العام الكويتية قصة عن شخص يحترف الرقية الشرعية للسيدات فقط، وتتحول الجلسات معه إلى "حلقات غزل" مطولة.. في إحدى اتصالاته الهاتفية مع زبونة له قال لها: "أنا ما ألوم الجني المتربع في أحشائك، يا مسحورة يا قمر"، وكانت هذه السيدة لجأت إليه ليقراً عليها بعد شعورها بضيق وإعياء وخمول، فاستغل الموقف وبدأ "حلقات" الغزل المصحوبة ببعض "التحسيس". ثم نقلت تفاصيل تلك القصة..

وهكذا نشرت قناة العربية في موقعها الإلكتروني حادثة امرأة كانت لا تنجب وذهبت هذه المرأة إلى رجل في دولة عربية عرف بهذه الأمور من السحر والشعوذة لكي يعطيها الإنجاب!! ولم تستيقظ إلا بعد مدة عندما أرسل إليها بأن عندي صور لك فاضحة.. باعتبار

أنها خدرت عندما ذهبت إليه.. هل ترسلين لي مبلغاً من المال أو أنشرها على الإنترنت؟ وظل يبتزها هكذا إلى أن وصل إلى مئة ألف درهم وبعدها ذهبت إلى نفس هذه المنطقة وقدمت شكوى عند الشرطة واعتقلوه.

علاج مشاكل الإنجاب إما أن يكون له طريق طبي أو طريق غيبي.. إن كان هناك مجال عن طريق الطب وإلا فلا بد أن يتوجه الإنسان إلى الله سبحانه وتعالى ويخلص في الدعاء له لكن البعض يتمسك بالوهم في كثير من الأحيان..

إذا وجد عند الناس هذه التوجهات الخرافية تنشأ وتتكاثر طبقة طفيلية تعيش على الابتزاز المالي وفي بعض الأحيان على الابتزاز الجنسي⁽¹⁾.

4. تشكل طبقة من الأفراد الطفيليين في المجتمع والذين يبيعون الوهم للناس بالأموال!!

فترى الواحد منهم يبيع كلمات قد كتبها ولا يعرف هو معناها، وليس لها مصدر... يبيعها بمئات الريالات أو آلافها، وهذه عملية سرقة للأموال، وبيع للوهم، واستغلال للناس.

وفي العلاج:

نحن بحاجة إلى أن ننظر إلى هذه الأمور والقضايا بنظرة إسلامية متعلقة حتى يتم القضاء عليها. فالجتمتع إذا صار واعياً وذو قدرة عقلية

(1) لا تخلو الصحف العربية أسبوعياً من الحديث عن القبض على مشعوذين، استغلوا ضحاياها جنسياً أو مالياً.. وبالرغم من أن بعض القصص فيها شيء من التضخيم الإعلامي، لكن بمعادلته بد (ما تخفي ولم يكتشف وهو الأعظم) يكون الأمر متعادلاً.

وأصبح ذا سياج، ستكون لديه الحصانة ضد هذه الأمور، حتى لو أراد شخص أن يستغل الناس شباباً أو شابات، مالاً أو جنساً أو غير ذلك.

كما ينبغي محاصرة من يحاول القيام بهذه الأعمال سعياً وراء حُطام دنيوي أو شهوة عاجلة.

والإسلام يعلمنا كيف نحكم العقل، كما في المأثور: حدث العاقل بما لا يكون فإن صدق فلا عقل له.

قضايا ثقافية

في منهج أهل البيت

ماذا تعني الثقافة؟

لو أردنا أن نبحث عن تعريف تام لكلمة الثقافة، لأعيانا ذلك، فإن تفسيرها من خلال الجذر اللغوي لـ (ثقف) وإن حاوله بعض الكتاب، إلا أنه يحتاج إلى تكلف شديد، لكي يعطي المعنى المتداول اليوم لهذا المصطلح⁽¹⁾.

لكننا سوف نستعين ببعض التعريفات التي حاولت أن تحدد المصطلح من خلال استقراء الواقع، مثلما صنع معدو تقرير التنمية

(1) في لسان العرب: لسان العرب - ابن منظور، ج 9، ص 19: ثقف: ثقف: ثقف الشيء ثقفاً وثقافاً وثقوفة: حدقه. ورجل ثقف (* قوله رجل ثقف كضخم كما في الصحاح، وضبط في القاموس بالكسر كحبر). وثقف وثقف: حاذق فهم، وأتبعوه فقالوا: ثقف لقف. وقال أبو زياد: رجل ثقف لقف رام راو. اللحياني: رجل ثقف لقف وثقف لقف وثقف لقف بين الثقافة واللقافة. ابن السكيت: رجل ثقف لقف إذا كان ضابطاً لما يحويه قائماً به. ويقال: ثقف الشيء وهو سرعة التعلم. ابن دريد: ثقفت الشيء حدقته، وثقفته إذا ظفرت به. قال الله تعالى: ﴿فَإِمَّا تَثَقَّفْنَهُمْ فِي الْحَرْبِ...﴾. وثقف الرجل ثقافة أي صار حاذقاً خفيفاً مثل ضخم، فهو ضخم، ومنه المثاقفة. وثقف أيضاً ثقفاً مثل تعب تعباً أي صار حاذقاً فطنا، فهو ثقف وثقف مثل حذر وحذر وندس وندس، ففي حديث الهجرة: وهو غلام لقن ثقف أي ذو فطنة وذكاء، والمراد أنه ثابت المعرفة بما يحتاج إليه. وفي حديث أم حكيم بنت عبد المطلب: إني حصان فما أكلم، وثقاف فما أعلم.

الإنسانية، حيث عرفوا الثقافة بأنها: مصطلح يشير إلى كل ما أنتجه البشر من أفكار وتصورات وعادات ونظم سياسية واجتماعية ومداولات اقتصادية، وفعاليات أدبية وتقنية عبر التاريخ وهو يكاد يتماهى مع مصطلح الحضارة.

والتراث الفكري مكون أساسي من مكونات هذه الثقافة، كما أن اللغة هي الحامل الأداتي لها والدين هو المنظومة الاعتقادية التي توجه حياة تلك الثقافة⁽¹⁾.

بينما الثقافة عند المرحوم مالك بن نبي هي: مجموعة من الصفات الخلقية والقيم الاجتماعية التي تؤثر في الفرد منذ ولادته وتصبح لا شعورياً العلاقة التي تربط سلوكه بأسلوب الحياة في الوسط الذي ولد فيه.

فهي أولاً (محيط) معين يتحرك في حدوده الإنسان فيغذي إلهامه ويكيف مدى صلاحيته للتأثير عن طريق التبادل. والثقافة (جو) من الألوان والأنعام، والعادات والتقاليد والأشكال والأوزان والحركات التي تطبع على حياة الإنسان، اتجاهها وأسلوباً خاصاً يقوي تصوره ويلهم عبقريته ويغذي طاقاته الخلاقة، إنها الرباط العضوي بين الإنسان والإطار الذي يحوطه⁽²⁾.

وأياً كان فحيث لا يترتب أثر مهم على تعريف المصطلح، خصوصاً فيما يرتبط بمجال بحثنا، والذي يحاول أن يقرأ بعض العناوين الثقافية القائمة، من خلال توجيهات القرآن وأهل البيت عليهم السلام، فإننا نعرض عن الإسهاب في التعريف، لصالح ما بعده.

(1) تقرير التنمية الإنسانية 2003.

(2) مالك بن نبي في: مشكلة الثقافة، ص 74 و102.

التفاعل بين الثقافة والسلوك:

نمط حركة الإنسان في الحياة رهين عوامل متعددة أهمها: ثقافته التي يحملها، عن نفسه وعن الكون والحياة ورسالته فيهما.. فهذه الثقافة (أو زاوية النظر) موجودة لدى كل أحد مهما كان مستواه المعرفي والعلمي، وهي التي تحدد طريقة حياته، من الجد والعبث والالتزام ومقابله.

ولعلنا نجد أنه لهذا السبب كان موقع (العقيدة) والأصول في الديانات مقدماً على موقع الشريعة والتفاصيل، وذلك لأنه من خلال العقيدة تتحدد الخارطة العامة لحياة الإنسان في مبدئها ومنتهاها، وتبين له نسبة علاقاته مع الخالق والخلق.

فليس من المعقول أن يطلب ممن يعتقد أنه ﴿... أَمَّا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا...﴾⁽¹⁾ أن يكون جاداً في حياته وحريصاً على عدم إضاعة الفرص! وهذا يعرب لنا عن تأثير تفاصيل الحياة، بأصول الاعتقاد.. ولا ندعي الحتمية في ذلك، ولكن القاعدة هي هذه، بل يؤكد أمير المؤمنين على هذه العلاقة بقوله لكميل: (ما من حركة إلا وأنت محتاج فيها إلى معرفة)⁽²⁾.

ولو أردنا تتبع العلاقة الأكيدة الموجودة بين الاعتقاد (الأصول، والنظرة الكونية) وبين التفاصيل الحياتية، والأحكام الشرعية لخرجنا بكثير من النتائج، وهذا يفسر لنا وجود العدد الكبير من الروايات التي تعلي من شأن المعرفة، وتقدمها على سائر المهمات، ففي الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام وقد سئل عن أفضل الأعمال وأحبها إلى الله

(1) المؤمنون: 115.

(2) مستدرک الوسائل 268/17.

فقال: ما أعلم شيئاً بعد المعرفة أفضل من هذه الصلاة.. وهو يشير إلى تقدم المعرفة على الصلاة في الفضيلة.

وفي حديث آخر قال: بعضكم أكثر صلاة من بعض، وبعضكم أكثر حجاً من بعض، وبعضكم أكثر صدقة من بعض وبعضكم أكثر صياماً من بعض، وأفضلكم معرفة⁽¹⁾.

وفسر الإمام الباقر عليه السلام الحكمة التي من أوتيتها فقد أوتي خيراً كثيراً، بأنها المعرفة، بينما جعل أمير المؤمنين علي عليه السلام أن حفظ الدين هو من ثمرة المعرفة.

لقد رأينا القرآن الكريم في جملة من آياته المباركات يركز على الأخطاء المعرفية والثقافية التي تتصل بنظرية الحياة، وهدفية الخلق، أكثر من تركيزه على تفاصيل الأخطاء الحياتية والسلوكية وإن كانت هذه أيضاً محط توجيهاته..

فهو يوبخ على الاعتقاد بنظرية عدمية عابثة لأنها تقود إلى العبث التفصيلي في الحياة، والفساد الأخلاقي ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾⁽²⁾.

وهكذا تلك الرؤية العنصرية التي تنتهي إلى أن يقفل الإنسان على عقله بالمغاليق في قولهم: ﴿... لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾⁽³⁾.

(1) ميزان الحكمة 3/1780.

(2) الجاثية: 24.

(3) البقرة: 111.

وإن الاعتداد بالذات والنظر المتضخم والمتورم لها وعدم معرفة حدودها، والذي تعبر عنه الروايات بلزوم معرفة النفس وأنه كفى بالمرء جهلاً أن لا يعرف قدر نفسه، وما هي نسبه إلى هذا الكون والحياة، هو الذي يقود إلى الأخطاء التفصيلية في الحياة، حين يقول الإنسان بكل صفاقة ﴿... مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً...﴾⁽¹⁾.

أو حين يتباهى بما حوله الله ناسياً أن ذلك لا يؤثر في معادلة الثواب والعقاب ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾⁽²⁾.

بل إن الفكرة الخاطئة، لتتحكم في كل حياة الإنسان ومصيره، حتى يصبح ذلك المصير لعبة بيد الظالمين والطغاة، بينما (يقتنع) هذا الإنسان بما لديه، الأمر الذي ترفضه التعاليم السماوية ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾⁽³⁾.

وهكذا تطول القائمة لو أردنا تتبع باقي الآيات المباركات..

وإذا كان لديك الوجدان والعيان فما حاجتك للسمع بالأذان؟ فلو نظرت إلى حال مجتمعنا العربي والإسلامي لوجدت أن من العوامل المهمة في تخلفه العامل الثقافي، ووجود الأفكار الخاطئة التي تعيق حركته.

(1) فصلت: 15.

(2) سبأ: 35.

(3) النساء: 97.

فإن الفهم الخاطئ لمفهوم التوكل على الله يجعله يتحول إلى عدم الأخذ بالأسباب وإلى الاعتماد على الفوضى، وترك التقدير للقوانين مع أن خلق الله للكون وهو القادر على كل شيء كان معتمداً على التقدير والقانون ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾⁽¹⁾ و﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾⁽²⁾.

وهكذا فإن القناعة بما قسم الله، وهو مفهوم من أعظم المفاهيم الأخلاقية، حين يفهم بنحو خاطئ ينتهي إلى قتل الطموح الفردي، والاجتماعي، ويصنع التخلف في الأمة.

وتعريف الدين بدل كونه دعوة للحياة والانطلاق والتقدم (إذا دعاكم لما يحييكم) على أنه أمر عبادي منفصل عن عالم السياسة والتجارة والاجتماع، قد يحوله إلى مخدر يستطيع الظالمون من خلاله أن يسيطروا على الشعوب.

بل ربما تحول بفعل الفهم الخاطئ إلى مصنع للموت والفناء بعدما كان باعثاً للحياة.

مما سبق يتبين أهمية التصحيح والمراجعة للفكر الذي يحمله المسلم، وتبيين الرشد من الغي ولكن:

لماذا القرآن وأهل البيت؟

لا بد في عالم الأفكار من وجود مرجعية، تقاس الأفكار من خلالها، ذلك أننا نحاول الحديث عن جملة من القضايا ضمن الدائرة الإسلامية، ولا يكفي - كما نعتقد - ما هو سائد من انطلاق

(1) الحجر: 21.

(2) القمر: 49.

الأفكار، بنحو يشكل كل واحد مرجعيته الفكرية من خلال نشاطه الذهني وآرائه الخاصة.

إن ما تقدم بالرغم من أنه يعتبر سباحة عكس التيار الثقافي، الذي يسود الآن في الأمة ويرى فيه قسم من المثقفين والكتاب أنفسهم غير مقيدين بمرجعية معينة، بل ربما حاولوا (لي) عنق تلك المرجعيات لتطاول أفكارهم وتصوراتهم (فالمعروف فيهم ما عرفوا، والمنكر عندهم ما أنكروا، مفزعهم في العضلات إلى أنفسهم، وتعويلهم في المهمات على آرائهم، كأن كل امرئ منهم إمام نفسه، قد أخذ منها فيما يرى بعري ثقات، وأسباب محكمات)⁽¹⁾. إلا أنه لا بد منه.

إننا نعتقد كما أن الانغلاق والجمود الفكري ضار بالأمة وبأجياها، فإن الانطلاق من غير مرفأ، والسباحة في بحر من غير عودة إلى ساحل، ينتهي إلى الغرق، وفي هذه الأمور فإنه «... لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ...».

وأهل البيت عليهم السلام، هم المرجعية الدينية التي أعلن عنها رسول الله عدلاً للقرآن ورفياً له، بمقتضى حديث الثقلين المشهور بين المسلمين.

إن هذا الحديث وأمثاله من الأحاديث لم يعط حقه من التأمل، بالرغم من كثرة ما قيل فيه، فإن كثيراً مما قيل فيه، إنما كان في إطار الجدل المذهبي والانتصار لهذا الطرف على ذاك، أو في إطار استقصاء كلمات المدح والثناء.. بينما يعتقد أن الغاية الكبرى من مثل هذا الحديث هو صنع مرجعية فكرية يُنطلق منها، ويرجع إليها. وهذا

(1) أمير المؤمنين علي عليه السلام في فحج البلاغة - خطبة 88.

صريح أحاديث كثيرة كما في قول أمير المؤمنين عليه السلام: (انظروا أهل بيت نبيكم، فالزموا سمتهم واتبعوا أثرهم فلن يخرجوكم من هدى، ولن يعيدوكم في ردى، فإن لدوا فالدوا، وإن نهضوا فانهضوا، ولا تسبقوهم فتضلوا ولا تتأخروا عنهم فتهلكوا)⁽¹⁾.

وأما بالنسبة للقرآن فهو - إضافة إلى كونه - «... يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمٌ...»⁽²⁾ سواء في الحياة الثقافية أو الاجتماعية أو السياسية.. فإنه ميزان يكشف من خلاله الصواب والخطأ، ومرفاً يعتصم به من الغرق كما قال رسول الله ﷺ: "فإذا التبست عليكم الفتن كقطع الليل المظلم فعليكم بالقرآن فإنه شافع مشفع وماحل"⁽³⁾ مصدق ومن جعله أمامه قاده إلى الجنة ومن جعله خلفه ساقه إلى النار وهو الدليل يدل على خير سبيل وهو كتاب فيه تفصيل وبيان وتحصيل وهو الفصل ليس بالهزل وله ظهر وبطن فظاهره حكم وباطنه علم، ظاهره أنيق وباطنه عميق، لا تحصى عجائبه ولا تبلى غرائبه فيه مصابيح الهدى ومنار الحكمة ودليل على المعرفة..⁽⁴⁾.

نقاط في منهج التعامل مع النصوص

من الواضح أن جيلاً كبيراً من أبناء الأمة الإسلامية اليوم يرجع إلى الكتب المصدرية التي تحتوي على (السنة القولية أو العملية)، ويستوي في ذلك الشيعة والسنة. بل ربما رأى الكثير من هؤلاء أن الرجوع إلى تلك الكتب أسلم وأفضل من الاطلاع على كتب

(1) نهج البلاغة - خطبة 97.

(2) الإسراء: 9.

(3) ساع ومخير.

(4) الكافي - الشيخ الكليني، ج 2، ص 599.

المعاصرين، وذلك لحالة القداسة التي تحاط بها تلك الكتب المصدرية، دون هذه الحديثة.. ذلك أنه قد ترسخ في أذهان الكثير من أبناء السنّة أن صحيح البخاري - مثلاً - هو أصح كتاب بعد كتاب الله المجيد⁽¹⁾، وربما نُسجت حوله بعض الكرامات والآثار مثل أن قوماً كانوا في البحر وجرين بهم بريح طيبة حتى إذا جاءتها بريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان آنذ وضعوا الصحيح على المركب فهدأ الموج وسار المركب سيراً وئيداً ووصلوا سالمين.. هذا نوع من إضفاء القداسة المبالغ فيها على كتاب هو - وإن جمع مؤلفه أحاديث يعتبرها صحيحة عن النبي ولكنه - جهد بشري وعمل إنساني يتعرض للنقص والعجز والخطأ والخلط، لكن هناك محاولة لإضفاء قداسة إضافية على هذا الكتاب الحديثي! وهكذا الحال بالنسبة إلى كتاب الكافي للكليني الذي هو أحد بل أهم الكتب الأربعة التي عليها مدار الاستنباط والاجتهاد عند شيعة أهل البيت عليهم السلام، ونحن نحفظ للرجل مكانه العلمي وللكتاب دوره لكن قد تجد مبالغة في إضفاء القداسة من غير ثبوت شرعي مثلاً: دعوى أن الإمام الحجة (عجل الله فرجه الشريف) أنه قد رآه وقال الكافي كاف لشيعتنا⁽²⁾! وما دام الأمر كذلك فلماذا يسعى شباب هذه الأمة إلى مطالعة كتب أخرى، والنظر فيها مع وجود كتب من هذا النوع لها هذه الفضائل؟ ويسري ما تقدم على باقي الكتب التي تتمتع بميزة (القدم) و(التراثية).

(1) وقد ناقش المحققون في هذه الكلمة وانتقدوها.

(2) قال المحدث النوري في خاتمة مستدرك الوسائل 470/3: إن الخير الشائع: من أن كتاب الكليني قد عرض على الإمام المهدي محمد بن الحسن، فقال: هذا كاف لشيعتنا.. لا أصل له ولا أثر له في مؤلفات أصحابنا بل صرح بعلمه المحدث الاسترابادي.

ولا يخفى أن جانباً من سبب ذلك يعود إلى الصحوة الإسلامية المتأخرة، وسعي الكثير من أبناء الأمة إلى أن يأخذوا (العلم) و(المعرفة) من مصادرها (الأصلية) و(الموثوقة). رافضين وجود وسائط بينهم وبين تلك الكتب!

وبالرغم من وجود فوائد في (عودة الروح) هذه، إلا أننا نحتاج بنحو أكبر إلى (عودة الوعي). فإن هناك عدداً من المشاكل لا بد من ملاحظتها في هذا التوجه.
فمن تلك المشاكل:

الأصول الروائية مواد خام وليست ثقافة جاهزة:

* أن هذه الكتب ليست كتب أفكار نهائية، وإنما هي مواد خام لإنتاج الأفكار من خلال عمل فكري متخصص يخضع لمنهج، ينظر إلى أطراف النصوص المختلفة ويجمع بينها بنحو صحيح.. خصوصاً مع عدم فهرسة الكثير منها فهرسة موضوعية، تشتمل على كل ما له دخل في نتيجة الفكرة.

والفرق كبير بين كتاب الفكرة الجاهزة، وبين الكتب الروائية التي تحتاج إلى جهد في الجمع والتركيب والتقييد وحل مشكلات المعارضة بين نصوصها.

إن دخول القارئ في هذا المخزن من الأحاديث والروايات، يشبه دخوله في مخزن كبير فيه قطع غيار للسيارات، من مختلف الأنواع والأحجام، ويطلب منه تركيب سيارة منها مع عدم وجود خريطة ومنهج يعرفه أماكن تلك القطع، وكيفية تركيبها مع بعضها. إن إعطاء الأولوية لنص دون الآخر، وتقديمه عليه، أو تفسيره بغيره، أو تقييده بسائر النصوص عملية مهمة جداً، وعدم القيام بها

قد يؤدي إلى نتائج مدمرة في عالم الفكر. وها هي فرقة الخوارج تاريخياً، وها هم التكفيريون المعاصرون يتكفرون في الأساس من خطأ معرفي، ونظر غير سليم إلى بعض النصوص القرآنية. ولعل هذا يفسر لنا قول الرسول: "أنهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم"، لقد نظروا إلى نص (لا حكم إلا لله) وأخطأوا فهمه ولم يستطيعوا أن يميزوا بين الحاكمية الإلهية⁽¹⁾ وبين الحكومة البشرية. لقد طلبوا الحق - بحسب منزلتهم - ولكنهم أخطأوه.

التفريق بين الدين والمعرفة الدينية:

هناك مشكلة أخرى وهي أن القارئ لهذه المصادر، يفهم منها شيئاً معيناً، ويتصور أن ذلك الشيء هو الدين، فما دام الحديث عن رسول الله، أو عن أمير المؤمنين، وقد قرأه في ذلك المصدر (المعتمد) فإذن هذا هو الدين الحق.. «... فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ...»⁽²⁾. وإذا كان هذا هو الحق فإن ما يخالفه هو الباطل، ومن يخالفه هو من أهل الباطل الذين يجب مواجهتهم ومحاربتهم حتى يفئوا إلى الحق!!
ومن هنا تنشأ أرضية التكفير والعنف.. ولو التفت هذا القارئ للمصادر الأصلية إلى أن هناك فرقاً بين الدين وبين فهمه هو للدين.. وأن الأول مقدس وليس بعده إلا الضلال، بينما الثاني لا قداسة فيه،

(1) قال **الكَلْبَلَاءُ**: كلمة حق يراد بها باطل. نعم إنه لا حكم إلا لله. ولكن هؤلاء يقولون لا إمرة إلا لله: وإنه لا بد للناس من أمير بر أو فاجر يعمل في أمرته المؤمن. ويستمتع فيها الكافر. ويبلغ الله فيها الأجل. ويجمع به الفيء، ويقاتل به العدو. وتأمين به السبل. ويؤخذ به للضعيف من القوي حتى يستريح به بر ويستراح من فاجر. نصح البلاغة - خطبة 40.

(2) يونس: 32.

بل قد يكون عين الباطل والاشتباه، إذ إن فهم الناظر هذا قد يصيب الواقع ويطابق الحق، وقد لا يكون إلا باطلاً وجهاً مركباً.. لو التفت إلى الفرق بين الدين وبين فهمه للدين لارتاح وأراح. ولتخلصت الأمة من كثير من مناشئ الصراع والاحتراب فيما بينها.

هذا التفريق والتمييز بين الدين وبين معرفة المتدين بدينه، يصنع أساساً في العلاقة بين الأفراد والجماعات ويمهد لإعذارهم، بحسب ما وصلت إليه عقولهم وأفكارهم من معرفة الدين وفهمه.. ويوضح لماذا يعتقد كل فريق أنه على صواب وهو الذي يمثل الحق، لأنه يقرأ القرآن ويجد أن أفكاره مطابقة له، ويحفظ الحديث ويجده تصديقاً لما يؤمن به، ونفس هذا الأمر يعتقد مخالفه في الطرف الآخر! مع أن الحق واحد لا يتعدد.

يقي أن يقال: ماذا نصنع؟ هل أن كل من يطلع على هذه المصادر لا يستطيع الاستفادة منها لأنها (معرفة) دينية وليست (ديناً)؟ ماذا عن فتاوى العلماء؟ وآراء الفقهاء المستنبطة من تلك المصادر إذا لم تكن ديناً فليست واجبة الإتيان والطاعة؟

والجواب على ذلك: أنه لا شك في أهمية الاطلاع على تلك المصادر، ولزوم الاستفادة منها، فما قيل من (السنة) إنما هو هداية وإرشاد للأمة.. وهذا يقتضي أن يتم الاطلاع عليه، والتزود منه.. ولكن الناس في هذا المجال قسمان:

- القسم الأكثر وهو غير المتخصص ولكنه يحمل مستوى ثقافياً يستطيع من خلاله فهم ما ينقل في تلك النصوص، وهذا القسم إن كان (قاطعاً، ومتيقناً) بأن ما وصل إليه من المعنى هو المراد من قبل صاحب النص فلا كلام معه، إذ القطع حجة لا يمكن الردع عنها، ولا المنع منها. ولكن هذا حجة بالنسبة لصاحبه في عمله وحياته

الخاصة دون أن يكون حجة على غيره ممن لم (يتيقن أو يقطع بذلك المعنى) ولا يصح له أن يلزم غيره بما وصل إليه.

وإذا كان - كما هو الغالب - قد فهم شيئاً ولكن يحتمل وجود معاني آخر له، أو يحتمل وجود مقيدات ومخصصات فيه، وأنه لم يُحط بها حتى الآن، فلا يستطيع والحال هذه أن يقطع بأن هذا هو المراد من صاحب النص، وبالتالي يبقى فهمه للنص أحد الاحتمالات التي قد تصيب وقد تخطئ!

ولا نريد هنا أن نتمسك بما هو معروف من أن المجتهد إن أخطأ فله أجر وإن أصاب فله أجران⁽¹⁾.. كما يصنعه الكثيرون، فإن الحديث المذكور يتحدث عن الحاكم المجتهد، والحاكم هنا بمعنى القاضي لا بد أن يكون على مستوى متميز من معرفة بالأحكام الدينية (والبعض من المذاهب يشترطون فيه مستوى الاجتهاد والتخصص)، المجتهد هنا - ليس كل من بذل جهداً، وإنما هو في قوة مصطلح (الخبير والمتخصص) هذا الشخص إذا بذل جهده واستفرغ كل ما لديه من طاقات فكرية في تخصصه ذلك، وأخطأ معه فإن له أجر الاجتهاد، والسعي.

أما أن يتصور كل من نظر إلى تلك النصوص أنه مجتهد وأنه مثاب ومأجور على تقديري الإصابة والخطأ فهو غير صحيح.

- القسم الثاني: المتخصص الخبير في كل فن وعلم هو مرجع لمن ليس كذلك، وهذا ما تشير إليه سيرة العقلاء قديماً وحديثاً، على

(1) في صحيح البخاري، ج 8، ص 157 عن رسول الله ﷺ يقول: "إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر". وفي غيره أيضاً كمسند أحمد بن حنبل، وكتاب الأم للشافعي، واستدل به فقهاء الشيعة في مواضع من كتب الاستدلال الفقهية.

أنهم يرجعون في كل قضية إلى المتخصص فيها ويأخذون بقوله.. وقد جاءت الآيات والروايات مؤكدة على هذا المعنى مثل «... فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ»⁽¹⁾.

ومعرفة هذا الشخص المتخصص (والذي يعبر عنه في الألسنة حالياً بالمجتهد) في النصوص الشرعية حجة عليه وعلى غيره، وعند التعارض تقدم هذه المعرفة على معرفة الآخرين، تماماً كما هو الحال في سائر المجالات حيث تقدم خبرة المتخصص فيها على غير المتخصص.

آثار الانفتاح من غير منهج:

لا نريد هنا أن نوحى إلى القارئ العزيز بأن النصوص الموجودة في المصادر هي حكر على فئة من الناس، وأن عليه أن يستمع إليهم فقط، وأن يفهمها من خلال فهمهم لها. فهذا خطأ قد وقعت فيه بعض الأوساط الدينية المسيحية، وكانت نتائجه سيئة.

وإنما نريد القول أن معالجة النص واستخراج الأفكار منه، كأى فن آخر يحتاج إلى طريقة ومنهج.. وأهمية هذا تكمن في أن قسماً من ما يقرأه من النصوص يتحول إلى (لافتات ثقافية) تصبغ حياة الإنسان وتحكم سلوكه. ولهذا كان ضرورياً أن يتم الوصول إلى تلك النصوص من خلال منهج سليم. يبدأ بتعقل الخبر والنص عقل رعاية⁽²⁾، والتأمل فيه وعدم الاكتفاء بمجرد روايته وقراءته.

(1) النحل: 43.

(2) في الخبر عن الإمام علي: (اعقلوا الخبر إذا سمعتموه عقل رعاية، ولا تعقلوه عقل رواية، فإن رواة العلم كثير ورعائهم قليل).

لنضرب بعض الأمثلة من حضور هذه النصوص في أذهان بعض المسلمين:

أهل العراق أهل غدر ونفاق!

بعض الناس يعتقدون أن أهل العراق هم أهل غدر وشقاق ونفاق لماذا؟ لأنه روي أن أمير المؤمنين عليه السلام قال في زمانه لأهل الكوفة: يا أهل العراق يا أهل الشقاق يا أهل النفاق⁽¹⁾ إلى غير ذلك،

(1) الموجود في نهج البلاغة - خطبة 71 عن الإمام علي عليه السلام هو: يا أهل العراق فإنما أنتم كالمرأة الحامل حملت فلما أتمت أملت ومات قيمها وطال تأمها وورثها أبعداها) أما والله ما أتيتكم اختياراً ولكن جئت إليكم سوقاً ولقد بلغني أنكم تقولون علي يكذب. قاتلكم الله فعلى من أكذب. وفي نهج البلاغة يوجد تقرير من قبله لأصحابه لكن لا بعنوان أهل العراق أهل الغدر والنفاق.. لكن في كلمات الحكام الأمويين تم استعمال هذا الكلام كثيراً، فهذا معاوية يقول للوليد بن جابر الطائي وهو من شيعة الإمام علي عليه السلام في حوار بينهما: وإنك لتهدديني يا أختي بأوباش العراق أهل النفاق، ومعدن الشقاق! فقال: يا معاوية هم الذين أشرقوك بالريق وحبسوك في المضيق، وذادوك عن سنن الطريق، حتى لذت منهم بالمصاحف، ودعوت إليها من صدق بها وكذبت، وآمن بمنزلها وكفرت، وعرف من تأويلها ما أنكرت. كما في شرح نهج البلاغة 129/16.

ومثله كلام عبد الله بن الزبير في مكة المكرمة فقد صعد المنبر وقال: أتانا خبر من العراق، بلد الغدر والشقاق، فساءنا وسرنا، أتانا أن مصعباً قتل رحمه الله.. شرح النهج 298/3.

وزاد على ذلك بتعبير المراق، ومساوئ الأخلاق، الحجاج بن يوسف الثقفي، حين خطب خطبته المعروفة فقال: يا أهل العراق، ويا أهل الشقاق والنفاق والمراق، ومساوئ الأخلاق، إن أمير المؤمنين نثل كناتته، فجمعها عوداً عوداً، فوجدني أمرها عوداً وأصعبها كسراً، فرماكم بي، وإنه قلدي عليكم سوطاً وسيفاً، فسقط السوط وبقي السيف كما في تاريخ يعقوبي 273/2.

ومثله والي الوليد على المدينة عثمان بن حيان الذي ما وصل المدينة حتى صعد المنبر ليقول: "أيها الناس إنا وجدناكم أهل غش لأمر المؤمنين في قديم الدهر وحديثه

ولهذا ما أن تتحدث عن موضوع العراق فإنه يتبادر إلى ذهن الحاضرين والسامعين هذا الأمر ويعللونه بأن الإمام علياً قال فيهم هذا الكلام، بينما العراق كان محض الحضارة الإسلامية في أهم فترات تاريخها، وفيه المراجع الدينيون العظام للسنة والشيعية وشاهد ذلك قبورهم، فيه الكتاب والمؤلفون وأرباب المذاهب، أهم فكر المسلمين كان وما يزال في العراق.. كيف تسوق كل هؤلاء بعضا الشقاق والنفاق وسوء الأخلاق؟

هنا عندما يتحول النص في ذهن (القارئ) من غير منهج صحيح) إلى لافطة ثقافية وشعار فكري ينتهي إلى مثل هذا الأمر. ولتبيان الحال في هذا نقول: إنه بعد فرض صدور الكلام عن الإمام، فإنه قد قاله لجماعة معينين لهم ظروف موضوعية زماناً ومكاناً، وضمن ظروف خاصة ولأسباب محددة. ولا يمكن أن تسري هذه الصفات أو النعوت إلى كل الأجيال والأزمان.

وقد ضوى إليكم من يزيدكم خبالاً أهل العراق هم أهل الشقاق والنفاق هم والله عش النفاق وبيضته التي تفلقت عنه. والله ما جربت عراقياً قط إلا وجدت أفضلهم عند نفسه الذي يقول في آل أبي طالب ما يقول. وأنت تلاحظ عزيزي القارئ أن الذي أصر على هذه الصفات لأهل العراق واستفاد منها سياسياً كان الطرف المخالف للتشيع، فتارة هو الأمويون وولاقم، وأخرى الزبيريون.. مما يضفي ظلالاً من الشك على نسبة هذه الصفات لأهل هذه البلاد.

نعم نسب الشيخ الطوسي في كتابه التبيان في تفسير القرآن، هذا الكلام لأمر المؤمنين مرسلًا فقال: كما قال علي عليه السلام: يا أهل العراق يا أهل الشقاق والنفاق ومساوئ الأخلاق كما في التبيان 138/9.. ولم أعتز على هذا النص في موضع آخر عنه عليه السلام وعلى فرض صدوره فسيأتي تأويله. ولا يخفى أن كثرة الحديث بهذا الشأن في المصادر التاريخية، قد خلقت نوعاً من القناعة عند الكثيرين، حتى لتجد شاعراً شيعياً كبيراً كالشيخ محمد علي الأعمش يقول في رثائه الحسين: ورد الحسين إلى العراق ووطنهم تركوا النفاق إذ العراق كما هبه.

ثم لو سألنا أنفسنا: من هم أهل العراق؟ هم أهل الجزيرة العربية شمالاً وجنوباً، فإن الكوفة قد مصرت وأسست في سنة 17 هجرية وكانت تعرف بكوفان الجند، وكانت أشبه بمعسكر انطلاق للجيش الفاتحة لفارس وتكون هذا البلد من القبائل العربية القحطانية والعدنانية التي ذهبت من الجزيرة العربية بعد أن استوطنت هناك، وشكلت (أسباعها) من كندة وخزاعة وتميم... والإمام خطب فيهم هذه الخطبة بعد سنة 35 هجرية فلم يتغير جيل وإنما نفس تلك القبائل بأشخاصها وشخصياتها، فهي في الواقع ليست عراقية إذ لم يكن هناك عراق بالنحو المعهود حالياً، بل هو نفسهم أهل الحجاز والبحرين واليمن.

ثم إن هؤلاء المخاطبين بخطاب الانتقاد والتفريع خوطبوا بذلك النحو بناء على أسباب معينة، وليس معلوماً بقاء نفس تلك الأسباب والحيثيات.

ها أنت عزيزي القارئ ترى أن هذا النص إذا تم التعامل معه من غير منهج صحيح يتحول إلى لافتة ثقافية خاطئة. فيكون كل عراقي شخصاً منافقاً أو صاحب شقاق وغدر!

مثال في الحياة الاجتماعية: ما هو مرتكز في أذهان الرجال (وأحياناً حتى النساء) من أن النساء ناقصات العقول والحظوظ والإيمان⁽¹⁾، يجعل هذا من نقاط القوة التي يستقوي بها الأزواج على زوجاتهم، ويسبقون استغلال هذا الشعار.. فما دمن ناقصات العقول فإذاً يجب أن تعطى راتبها لزوجها (صاحب العقل الكامل!) ليتصرف فيه كما يشاء!

(1) لقد تعرضنا بشكل تفصيلي إلى المراد من هذه الكلمات وناقشناها سنداً ومتناً في مقدمة كتاب (في رحاب الإمام علي) قسم النساء.

عندما يفتح الإنسان انفتاحاً مباشراً من غير منهج على مثل هذا النص يتحول هذا النص إلى لافتة ثقافية وشعار فكري وهو شعار خاطئ.. عندما قال الإمام هذا الكلام هنا - على فرض تمامية نسبته له - قال في مكان آخر أشياء أخرى، وأعلى من شأن المرأة، وقبل الإمام قال القرآن، وقال النبي وهذه كلها لا بد أن تُجمع حتى يتبين ما هي نظرية الإسلام بالنسبة للمرأة.

في المجال السياسي: ما ينقله البعض عن رسول الله ﷺ أنه قال في وصيته قرب موته: "أخرجوا المشركين من جزيرة العرب"⁽¹⁾ هذا الذي صار شعاراً لبعض الجهات السياسية المعاصرة، هل هو من الأحكام الشرعية التي ينطبق عليها (حلال محمد حلال إلى يوم القيامة) أو هو من الأحكام التديرية والتنظيمية للمجتمع لأن مقام النبي أكثر من مقام عنده مقام المبلغ عن الأحكام ومقام المدير والمدبر للمجتمع النبي يريد أن يدبر هذا المجتمع بقانون معين كما سيأتي الحديث عنه في المستقبل إن شاء الله تعالى.

فقد كان للنبي توجيهات تديرية ليس لها - بالضرورة - صفة الديمومة والاستمرار، وإنما النبي بوضعه لها وأمره بما جعلها محدودة بزمن معين!

مثال في قضية العقائد: إذا جاء أحدهم وقال إن الأئمة يقولون (قولوا فينا ما شئتم) فهل يمكن أن يقول أحد أن الإمام علي عضلاته من ألمنيوم أو حديد؟ هل يصح أن يقول أحد أن الإمام السجاد كان يطير في الهواء من كربلاء إلى المدينة؟ لأنه يشمل قولوا فينا ما شئتم؟ لا بد لكل ما يقال من إثبات، و(قولوا فينا ما شئتم) لا بد أن تقيّد

(1) سيأتي الحديث عنه.

بقيود أخرى بحيث لا يكون كذباً ولا افتراءً ولا بنحو يكون مخالفاً
لشأن الإمام، بل إن المتأمل في أصل هذا المروي يرى أنه كان في
صدد معالجة مشكلة الغلو والارتفاع⁽¹⁾، وفي بعضها قولوا فينا كل
خير فنحن أهله!

المشكلة هي أنه عندما يحدث انفتاح بلا منهج ولا خريطة
للولصول تتحول بعض الأحاديث إلى لافتات ثقافية دائمة مع أنها
ليست كذلك.

(1) بحار الأنوار - العلامة المجلسي، ج 25، ص 289.

- كشف الغمة: من كتاب الدلائل للحميري عن مالك الجهني قال: كنا
بالمدينة حين أجليت الشيعة وصاروا فرقاً ففتحنا عن المدينة ناحية ثم خلونا
فجعلنا نذكر فضائلهم وما قالت الشيعة إلى أن خطر ببالنا الربوبية، فما شعرنا
بشيء إذا نحن بأبي - عبد الله عليه السلام واقف على حمار فلم ندر من أين جاء.
فقال: يا مالك ويا خالد! متى أحدثتما الكلام في الربوبية؟ فقلنا: ما خطر ببالنا
إلا الساعة، فقال: اعلمنا أن لنا رباً يكلاًنا بالليل والنهار نعبده، يا مالك ويا
خالد قولوا فينا ما شئتم، واجعلونا مخلوقين، فكررنا علينا مراراً وهو واقف
على حماره.

الفهم الحرفي أو العرفي للروايات

قال أمير المؤمنين علي عليه السلام: (اعقلوا الخبر إذا سمعتموه عقل رعاية ولا تعقلوه عقل رواية فإن رواة العلم كثير ورعاته قليل)⁽¹⁾.
كان من نتائج الصحوة الإسلامية عودة الكثير من شباب الأمة إلى المصادر الأصلية للروايات والأحاديث طلباً منهم لما يتصورونه من صافي الفكر والفقّه وقد كان لهذا التوجه آثار محمودة إلا أن هناك مشاكل نتجت عن عدم وجود منهج للتعامل مع هذه النصوص ومع فهمها باعتبار أن نصوص الروايات الموجودة في الكتب الحديثية والروائية ليست ثقافة جاهزة وإنما هي أشبه بالمواد الخام وهذه تحتاج إلى منهج وخريطة ومتخصص، فعدم وجود هذا المنهج ينتج عنه أخطاء فكرية وقد ينتج عنه تزيّد في فهم القضايا الدينية.
ولذلك فإن علينا أن نحاول استكشاف بعض النقاط المساهمة في تعيين فهم النصوص الروائية والحديثية.
من هذه النقاط أن يتم فهم روايات النبي صلى الله عليه وآله وسلم والمعصومين فهماً عرفياً بعيداً عن الحالة الحرفية.

النبي لم يأت بطريقة خاصة في الخطاب:

لتوضيح هذا الكلام ثم الاستشهاد عليه ببعض الشواهد

(1) نهج البلاغة - قصار الحكم، رقم 98.

نقول: إن رسول الله ﷺ وأئمة أهل البيت عليهم السلام لم يأتوا بطريقة جديدة في الخطاب والتفاهم، وإنما طريقتهم في الخطاب والتفاهم هي الطريقة السائدة عند العرب وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا المعنى مراراً ﴿... وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ...﴾⁽¹⁾ والأنبياء ولسانهم الأعلى والأجلى، رسول الله ﷺ يقول: "إننا معاشر الأنبياء أمرنا أن نكلم الناس على قدر عقولهم"⁽²⁾ سواء كان من حيث كمية العلم المعطى إليهم أو طريقة الأداء وأسلوب الإفهام وإلا ما كان ذلك بلاغاً وإبلاغاً.. فلو تكلم النبي باللغة الإنكليزية في وسط العرب ما كان ذلك بلاغاً وما كان النبي في ذلك بليغاً مع أن القرآن الكريم يقول: ﴿إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا...﴾⁽³⁾.

بل لو تكلم باللغة العربية ولكن بصورة معقدة على طريقة الفلاسفة مثلاً لم يكن هذا بلاغاً وإن كان بلغة عربية.

البلاغ ومنه البلاغة يقتضي أن يتكلم المتحدث بجرعة تناسب عقول المستمعين وبلغة يصلون من خلالها إلى المعنى المراد. هذه الطريقة هي التي ينبغي أن يفكر فيها الباحث عندما يتناول نصاً من النصوص المروية عن النبي ﷺ. عندما تأخذ نصاً مروياً عن النبي ﷺ أو عن الإمام، تصوّر النبي أو الإمام في وسط مجموعة من الناس يريد أن يوصل إليهم فكرة ويخبرهم عن قضية، وهذه الكلمات هي الموصل والمؤدي.

إننا نرى أنه أحياناً يتقيد بعض الباحثين ومنهم علماء ببعض

(1) إبراهيم: 4.

(2) الكافي 8/268.

(3) الأنبياء: 106.

الكلمات والحروف ويصرون عليها ويقعون في إشكالات خطيرة تبعدهم عن فهم المعنى المراد من تلك الكلمات، بينما المفروض أن الناظر إلى روايات المعصومين يستحضر في ذهنه أنهم يتحدثون مع عدد من الناس متوسطي الثقافة والمعرفة ويريدون أن يوصلوا لهم فكرة حتى يطبقوها⁽¹⁾.

بل إن المتحدث يريد أحياناً المعنى المباشر للفظ، ويريد المعنى غير المباشر أو يقصد المعنى الحقيقي وأحياناً المجازي.

هناك قضية مشهورة تشير إلى هذا المعنى، أن رجلاً جاء يستعطي رسول الله ﷺ ويطلب منه المال، فبدأ يمدح رسول الله ويثني عليه ويذكر حاجته بمقدار من التفصيل فقال رسول الله لعلي عليه السلام: يا علي اقطع لسانه! استنكر.. بعض الحاضرين كيف؟ هذا رجل فقير جاء إلى النبي يستعطي مالاً ويحتاج إلى المساعدة فكيف يقطع لسانه؟ فقام الإمام علي بن أبي طالب وأعطاه مقداراً من المال فسكت ذاك وانقطع لسانه⁽²⁾.

وهذا متداول في لغة العرب فإن من جمال هذه اللغة أنها تستخدم المجاز والكناية وتلمح إلى المطلوب ولذلك كان الشعر عذباً، بل لذلك كانت البلاغة.. أما إذا لمست ملامسة حرفية مباشرة فإنها قد تخلو من الجمال والطلاوة.

لكن يتلى بعض الناظرين في كلمات المعصومين بمشكلة الحالة الحرفية في أحيان كثيرة.

(1) أشار الكثير من الباحثين إلى مشكلة دخول الفهم (المدرسي) والمصطلحات الفلسفية في فهم الروايات مما يبتعد بها عن جوها، وقد تعرض لذلك الدكتور الفضلي في كتابه دروس في فقه الإمامية، ج 2.

(2) في بعض الروايات أنه قال لبلال ذلك.

مثلاً يرى أحدهم الحديث: "أيما امرأة استعطرت ثم خرجت فمرت على قوم ليجدوا ريحها فهي زانية، وكل عين زانية"⁽¹⁾.. يقال هنا إن الزنا يتحقق بأمر معروف، هو لقاء جنسي معهود بين رجل وامرأة من غير وجه مشروع، المرأة التي تخرج من بيتها متعطرة لم يصدر منها هذا الأمر فليس هذا المعنى مراداً بحرفيته قطعاً؛ إنما لا بد من حملة على معاني آخر وإلا كان هذا الحديث كاذباً.

الابتلاء في الحرفية في فهم النصوص الواردة عن الرسول وعن المعصومين يوقع الإنسان في أخطاء فكرية وأخطاء فقهية.

من الأمثلة التي يوردونها في هذا المجال ما نقله محي الدين النووي أحد علماء السنّة في كتابه المجموع (وهو كتاب في الفقه المقارن بين مذاهب السنّة) نقل عن داود الظاهري الأصفهاني وهو صاحب مذهب قليل الأتباع في هذه الأزمنة وهو (مذهب داود الظاهري). فإنه قد استفاد من رواية عن رسول الله ﷺ أنه: "إذا بال أحدكم في ماء فلا يتوضأ منه" ومعناها أن هذا الماء يتنجس ولا يصح الوضوء بماء نجس، يقول: إن داود الظاهري استنتج من هذه الرواية أحكاماً غريبة منها:

1. أنه إذا بال نفس الشخص فلا يجوز له أن يتوضأ منه، وأما لو كان بجانبه شخص آخر يجوز له الوضوء من هذا الماء الذي بال فيه. وعلل ذلك بأن الحديث نص هكذا "إذا بال أحدكم في ماء فلا يتوضأ منه" فهو لا يستطيع أن يتوضأ منه، وأما غيره فلم يذكر الحديث عدم جواز وضوئه منه.

(1) كنز العمال - المتقي الهندي، ج 16، ص 383.

2. وأنه إذا بال هو نفسه ثم توضأ لا يجوز ولكن لو تغوط هو نفسه في هذا المكان ثم توضأ جاز ذلك له لماذا؟ لأن الحديث لم يذكر التغوط بل ذكر التبول.

3. لو أنه بال في إناء ثم صبه في ذلك الماء ثم توضأ جاز ذلك له وعلل ذلك أنه لم يبل في الماء مباشرة وإنما بال في شيء آخر ثم صبه في الماء. ثم يقول إذا صح هذا المنقول عنه فهو شنيع وفي غاية الفساد⁽¹⁾.

نحن نحتاج أن نتعامل مع النصوص والروايات الواردة عن رسول الله ﷺ وعن أئمة أهل البيت عليهم السلام بفهم عري منفتح يفهم المعنى ويدرك مغزى الكلام من دون أن يكون أسيراً للألفاظ والحروف بحيث يؤدي به ذلك لمأزق مثل هذا الذي وقع فيه بعضهم.

ملاحظة الجانب الزمني في الروايات:

إن بعض الروايات التي تحدث بها النبي ﷺ وأئمة أهل البيت عليهم السلام لها جانب مرتبط بالزمان، وتغير الزمان والأحوال مؤثر في تغيرها.. وذلك لأن الأحكام على أقسام؛ فقسم منها لا يتأثر بمرور الزمان ولا يتغير ولا يتبدل وهذا ينطبق عليه "حلال محمد

(1) ونص كلامه كما هو في المجموع، ج 1، ص 118: فرع) نقل أصحابنا عن داود بن علي الظاهري الأصبهاني رحمه الله مذهباً عجيباً فقالوا: انفرد داود بأن قال: لو بال رجل في ماء راكد لم يجز أن يتوضأ هو منه لقوله ﷺ: "لا يبولن أحدكم في الماء الدائم ثم يتوضأ منه" وهو حديث صحيح سبق بيانه قال: ويجوز لغيره لأنه ليس بنجس عنده ولو بال في إناء ثم صبه في ماء أو بال في شط ثم جرى البول إلى النهر قال يجوز أن يتوضأ هو منه لأنه ما بال فيه بل في غيره قال ولو تغوط في ماء جار جاز أن يتوضأ منه لأنه تغوط ولم يبل. وهذا مذهب عجيب وفي غاية الفساد فهو أشنع ما نقل عنه إن صح عنه.

حلال إلى يوم القيامة وحرام محمد حرام إلى يوم القيامة¹ الخمر مثلاً حرام في كل زمان، الصلاة واجبة كذلك. وهذا الأمر في العباديات دائماً وفي غيرها في الجملة موجود.

لكن هناك قسماً آخر من النصوص ناظر إلى فترة زمنية معينة فليس بالضرورة أن يثبت في غيرها، وقد صرح أئمة أهل البيت عليهم السلام بهذا المعنى في أكثر من حديث، مثلاً:

سُئِلَ أمير المؤمنين عليه السلام عن قول رسول الله ﷺ: "غبروا الشيب ولا تشبهوا باليهود" ..

فإنه يعتقد أن النبي قام بعدد من الأعمال في بداية الإسلام، وكان فيها إظهار لقوة المسلمين وشدة شوكتهم، فإنهم ينقلون عنه استحباب صبغ اللحية والشوارب وشعر الرأس بينما المعروف عن اليهود أنهم كانوا لا يصبغون، على الأقل في تلك الفترة الزمنية.

كان النبي ﷺ يريد أن يظهر المسلمين على أنهم شباب وبهم قوة في مواجهة أعدائهم، ومن ذلك ما ذكره في علة الهرولة في السعي بين الصفا والمروة، أنه عندما دخل إلى مكة بعد صلح الحديبية وكان القرشيون يراقبون المسلمين الذين جاؤوا بلا سلاح لتأدية نسكهم فلما رأى النبي المشركين ينظرون إلى المسلمين أمرهم أن يهرولوا في استعراض لإظهار القوة.

بعدهما توفي الرسول سُئِلَ أمير المؤمنين علي عن تغيير الشيب

(1) روى الشيخ الكليني في الكافي، ج 1، ص 58 عن علي بن إبراهيم، عن محمد بن عيسى بن عبيد، عن يونس، عن حريز عن زرارة قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن الحلال والحرام فقال: حلال محمد حلال أبداً إلى يوم القيامة، وحرامه حرام أبداً إلى يوم القيامة.. السند معتبر.

بالسواد لقوله ﷺ: "غيروا الشيب ولا تشبهوا باليهود" فقال أمير المؤمنين عليه السلام: (كان ذلك والدين قُلُّ أما الآن وقد ضرب بجرانه واتسع نطاقه فامرؤ وما اختار)⁽¹⁾ أي أن الدين عندما كان حديث النشأة وقليل الأتباع كان ذلك التوجيه النبوي، وأما الآن بعدما قوي الدين وضرب بجرانه أي استقر أمره، واتسع نطاقه فالأمر واسع والمرء مخير فيه.

فيظهر من هذا أن التأكيد على صبغ الشيب، كان لجهة مرتبطة بالزمان، فإذا تغير الزمان وتغيرت بالتالي تلك الجهة لم يعد هذا الأمر يحمل نفس المرتبة من التأكيد.

ولعل عدم الالتفات إلى هذه الجهات تجعل البعض يسأل أو يعترض على الأئمة عليهم السلام في بعض هيئاتهم الشخصية أو ألبستهم، فقد روى مصدق بن صدقة قال: دخل سفيان الثوري على أبي عبد الله عليه السلام فرأى عليه ثياب بيض كأنها غرقى البيض⁽²⁾، فقال له: إن هذا اللباس ليس من لباسك! فقال له: اسمع مني وع ما أقول لك، فإنه خير لك عاجلاً وآجلاً، إن أنت متَّ على السنَّة ولم تمت على بدعة، أخبرك أن رسول الله ﷺ كان في زمان مقفر جذب، فأما إذا أقبلت الدنيا فأحق أهلها بما أبرارها لا فجارها، ومؤمنوها لا منافقوها، ومسلموها لا كفارها، فما أنكرت يا ثوري؟! فوالله إني لمع ما ترى ما أتى علي - مذ عقلت - صباح ولا مساء والله في مالي حق أمرني أن أضعه موضعاً إلا وضعت⁽³⁾ ...

(1) نهج البلاغة - الكلمات القصار والحكم، رقم 17.

(2) قشر البيض الداخلي كناية عن نعومته.

(3) الكافي 5/65.

ومثال آخر: سئل الإمام الصادق عليه السلام كان جدك علي عليه السلام يلبس الخشن من الثياب وأنت تلبس الثياب الجيدة الناعمة! والمفروض أن منهجكم واحد.

فقال الإمام عليه السلام: (كان ذلك في زمان لا يُنكر ولو لبس اليوم لشهر به فخبر لباس كل زمان لباس أهله)⁽¹⁾ ففي ذلك الوقت حيث حالة الفقر العام كان من المناسب أن يلبس الإمام عليه السلام مثل تلك الثياب، هذا إضافة إلى موقعه القيادي باعتباره رئيس الدولة كي لا يتبغ بالفقير فقره يدعو أن يلتزم بهذا المنهج.

أما في زمان الإمام الصادق عليه السلام حيث كانت الحالة المادية العامة للناس حالة حسنة لو لبس أحدهم اللباس الذي كان يلبسه أمير المؤمنين لقليل: هذا مرأى يجب أن يشتهر بلباس أهل الزهد.

خير لباس الزمان لباس أهله:

لو أخذنا مثلاً: اللباس القصير التي تلتزم به بعض الفئات المتدينة اعتماداً على أنه في زمن رسول الله ﷺ كانوا يلبسون هذا اللباس! هذا ينطبق عليه أيضاً أنه كان في زمان لا يُنكر عليه، وأما اليوم فلو أن أحدهم فعل ذلك لصار شهرة الأسواق! ولهذا فقد أطلق الإمام الصادق عليه السلام قانوناً عاماً يحكم قضية اللباس ويعتبر بمثابة المحدد، وهو حاكم على باقي الروايات التي تتحدث عن الألبسة، وهو (خير لباس كل زمان لباس أهله) بالطبع لا بد من توفر ما ينبغي في مثله من شروط الستر وغير ذلك.

(1) الكافي 1/411.

هناك نقطة أخرى ينبغي توضيحها في موضوع اللباس القصير مع وجود التوجيهات التي تقول باستحباب لبس القصير كما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿وَتِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾¹ حيث فسرت بالرفع والتشمير، وكذلك ما ورد في كراهة لبس الطويل والإسبال في الثياب، فإن البعض قد فهم منها أن التقصير مطلوب لذاته، وأن الطويل مكروه لذاته، بينما في الروايات هناك تعليل أو توجيه لاستحباب هذا وكراهة ذلك، وهو تقييده بكون الطويل على جهة الخيلاء والاستكبار وأتخذ يكون من منازعة الله في كبريائه، ويحمل معنى غير أخلاقي⁽²⁾.

فعن النبي ﷺ - في آخر خطبة خطبها: "... ومن لبس ثوباً فاختلف فيه خسف الله به من شفيع جهنم يتخلخل فيها ما دامت السماوات والأرض، وإن قارون لبس حلة فاختلف فيها فحسف به، فهو

(1) قال السيد الطباطبائي في تفسير الميزان، ج 20، ص 81، قوله تعالى: ﴿وَتِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ قيل: كناية عن إصلاح العمل، ولا يخلو من وجه فإن العمل بمنزلة الثياب للنفس بما لها من الاعتقاد فالظاهر عنوان الباطن، وكثيراً ما يكنى في كلامهم عن صلاح العمل بطهارة الثياب. وقيل: كناية عن تزكية النفس وتنزيهها عن الذنوب والمعاصي. وقيل: المراد تقصير الثياب لأنه أبعد من النجاسة ولو طال وانجرت على الأرض لم يؤمن أن تتنجس. وقيل: المراد تطهير الأزواج من الكفر والمعاصي لقوله تعالى: ﴿... هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ...﴾ [البقرة: 187]. وقيل: الكلام على ظاهره والمراد تطهير الثياب من النجاسات للصلاة.

(2) فعن النبي ﷺ قال: "إتزر إلى نصف الساق أو إلى الكعبين وإياك وإسبال الإزار، فإن إسبال الإزار من المخيلة وإن الله لا يحب المخيلة" قال: إن الإسبال في الإزار والقميص والعمامة، وقال: من جر ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة. وعن أبي جعفر الطوسي قال: قال رسول الله ﷺ: "إن ريح الجنة ليوجد من مسيرة ألف عام ولا يجدها جار إزاره خيلاء، إنما الكبرياء لله رب العالمين". من كتاب مكارم الأخلاق للشيخ الطبرسي، ص 109 - 110.

يتخلخل إلى يوم القيامة". وعن أبي جعفر الباقر عليه السلام: (أن النبي ﷺ أوصى رجلاً من بني تميم فقال له: إياك وإسبال الإزار والقميص، فإن ذلك من المخيلة، والله لا يحب المخيلة). وقال كاشف الغطاء في جملة ما يحرم من اللباس: "ومنها لباس التبخر والخيلاء، فإن من اختال نازع الله تعالى في جبروته، وحسف الله به شفيع جهنم، وكان قرين قارون)¹.

وإذا كان التعليل هذا بمثابة التقييد، كما فهمه الفقهاء، فإنه ربما كان الثوب القصير الذي يصنع الكبرياء (مكروهاً لهذه الجهة) وفعلاً فإن قسماً ممن يلبس هذه الثياب القصيرة يعتقد في داخل نفسه أنه أفضل من كل من حوله حيث يعتقد أنه هو - دون سواه - يستن بسنة المصطفى ﷺ.. وهذه هي غاية الكبرياء، ونهاية الخيلاء، وهذا هو الذي كان علة النهي عن الثوب الطويل، لقد هربت من الثوب الطويل فوقعت فيما هو أسوأ منه وهو ثوب الخيلاء والتكبر، كان استحباب الثوب القصير لأنه أبعد عن الكبر، وأقرب إلى التواضع، فأصبح صانعاً للكبر ومانعاً عن التواضع في حق هذا اللباس. وانطبق عليه ما ورد في الحديث (ومن لبس ثوباً فاختلف فيه خسف الله به من شفيع جهنم يتخلخل فيها ما دامت السماوات والأرض).

مما يرتبط أيضاً بمدخلية الزمان وأنه من الممكن عندما يتغير يتأثر بذلك التغير الحكم، مدخليته في اللباس فإن هناك الكثير من الروايات تنهى عن لبس السواد وتقول إنه: (لباس أهل النار، لباس فرعون)⁽²⁾

(1) الموسوعة الفقهية الميسرة - الشيخ محمد علي الأنصاري، ج 3، ص 202 - 203.

(2) مثلما ورد: كنت عند أبي عبد الله عليه السلام بالحريرة فأتاه رسول أبي جعفر الخليفة يدعوه فدعا بممطر أحد وجهيه أسود والآخر أبيض فلبسه ثم قال أبو عبد الله: أما إني ألبسه وأنا أعلم أنه لباس أهل النار. وسئل الصادق عن الصلاة في القلنسوة السوداء؟ فقال: لا تصل فيها فإنها لباس أهل النار.

فلو افترضنا أن شخصاً في هذا الزمان لبس بدلة سوداء لأنه ذاهب إلى استقبال رسمي أو عباءة سوداء أو ثوباً أسود في مناسبة عزاء.. فهل كراهة ذلك هي من الأحكام الدائمة التي ينطبق عليها (حلال محمد حلال إلى يوم القيامة وحرامه حرام إلى يوم القيامة)؟ أو أنها قضية مربوطة بزمان وظرف معين؟ وحين يتغير ذلك الظرف والعنوان التابع له على أثر تغير الزمان يتغير حكمها؟

يذهب البعض إلى أن هذه التشريعات كانت ناظرة لزمان بني العباس، الذين عرفوا بأنهم المسودة، وأتوا بربائهم السود ولباسهم الأسود ورفعوا السواد⁽¹⁾ شعاراً لهم في بداية تأسيس دولتهم حتى إنه لما بُويع الإمام الرضا عليه السلام بولاية العهد أمر المأمون أن يغير لباس السواد إلى لباس الخضرة⁽²⁾. ومع أن كون الأخضر شعار بني هاشم غير ثابت، ولكن المعروف تاريخياً أن لباس بني العباس

(1) ربما يكون ذلك استغلالاً منهم لما ورد من أخبار عن انتصار الرايات السود القادمة من خراسان وأهم على الحق!

(2) تاريخ الطبري ج 7، ص 139: (ذكر) أن عيسى بن محمد بن أبي خالد بينما هو فيما هو فيه من عرض أصحابه بعد منصرفه من عسكره إلى بغداد إذ ورد عليه كتاب من الحسن بن سهل يعلمه أن أمير المؤمنين المأمون قد جعل على بن موسى بن جعفر بن محمد ولي عهده من بعده وذلك أنه نظر في بني العباس وبني علي فلم يجد أحداً هو أفضل ولا أروع ولا أعلم منه وأنه سماه الرضا من آل محمد وأمره بطرح لبس الثياب السود ولبس ثياب الخضرة وذلك يوم الثلاثاء ليلتين خلتا من شهر رمضان سنة 201 ويأمره أن يأمر من قبله من أصحابه والجند والقواد وبني هاشم بالبيعة له وأن يأخذهم بلبس الخضرة في أقيمتهم وقلانستهم وإعلامهم ويأخذ أهل بغداد جميعاً بذلك فلما أتى عيسى الخير دعا أهل بغداد إلى ذلك على أن يعجل لهم رزق شهر والباقي إذا أدركت الغلة فقال بعضهم: نبايع ونلبس الخضرة وقال بعضهم: لا نبايع ولا نلبس الخضرة ولا نخرج هذا الأمر من ولد العباس وإنما هذا دسيس من الفضل بن سهل.. إلى آخر ما ذكر.

كحركة سياسية وكدولة ونظام هو السواد.

ولهذا يرى البعض أن حديث أهل البيت عليهم السلام عن قضية السواد أنه ناظر إلى معالجة وضع سياسي وإعلان عدم مشروعيته بهذا الأسلوب، فيكون لبس السواد من باب التشبه بأعداء الله والطواغيت الظالمين، فهو منهي عنه بهذه الطريقة. ويكون السواد من باب الإشارة لا أن له موضوعية في النهي!

وإلا فإن هناك روايات أخر تصرح بأنه (بيض قلبك والبس ما شئت)¹، وبأن بعض الأئمة قد لبسوا السواد.

بل إن لدينا بعض الروايات التاريخية تقول إن الفاطميات لبسن السواد بعد مقتل الحسين عليهم السلام وكان هذا بحسب القاعدة تحت نظر وسمع الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام، وهذا يعني أنه على الأقل ليس بمكروه وإلا كان الإمام يوجههن إلى ما هو المناسب من الفعل ولكن مع ذلك لم يقم الإمام السجاد بهذا التوجيه.

(1) عن داود الرقي قال: كانت الشيعة تسأل أبا عبد الله عن لبس السواد؟ قال: فوجدناه قاعدا عليه جبة سوداء وقلنسوة سوداء، وحف أسود مبطن بسواد، ثم فتق ناحية منه وقال: أما أن قطنه أسود وأخرج منه قطناً أسود، ثم قال: (بيض قلبك والبس ما شئت). وللتفصيل يراجع كتاب من قضايا النهضة الحسينية القسم الثالث - للمؤلف.

تعدد مقامات النبي وأثرها في فهم النصوص

هذه السطور تتناول لزوم التفريق بين النصوص الصادرة عن النبي ﷺ وعن المعصومين بحسب اختلاف مقاماتهم. يذكر العلماء أن للنبي ﷺ ثلاثة مقامات: المقام الأول: هو مقام تبليغ الأحكام عن الله عزّ وجل. المقام الثاني هو مقام القضاء. والمقام الثالث هو مقام الولاية على المجتمع المسلم وإدارة شؤونه.

وباعتبار أن الصحابة كانوا حول رسول الله فقد نقلوا كلماته، وهي ترتبط بالمقامات الثلاثة من دون تفريق بينها، ولهذا حصل أحياناً الاختلاط بين هذه الكلمات المنقولة وأما من أي مقام من المقامات.

1. مقام النبوة والتبليغ:

وعند النظر إلى المقام الأول نجد أنه المقام الأساس للنبي ﷺ، ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾⁽¹⁾، وعلى هذا الأساس كان التوجيه الإلهي

(1) الأحزاب: 45 - 46.

للناس أن ﴿... وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا...﴾⁽¹⁾ وفي هذا الموقع يكون (حلال محمد حلال إلى يوم القيامة وحرامه حرام إلى يوم القيامة).

وكمثال على هذا المقام ما يرتبط بالعبادات، يصلي النبي أمام الناس بكيفية ثم يقول (صلوا كما رأيتموني أصلي)⁽²⁾، وبالتالي يأخذ المسلمون هذه الكيفية للصلاة وما فيها من أفعال وأقوال باعتبار أنها أحكام شرعية ثابتة لا تتخلف ولا تتغير، إذا أراد أحد أن يأتي بصلاة كاملة الأجزاء والشرائط فلا بد أن ينظر إلى طريقة صلاة رسول الله ﷺ الذي قال صلوا كما رأيتموني أصلي.

وهكذا في الحج فإنه ﷺ دعا الناس كما حصل في حجة الوداع وأرسل رسله إلى أطراف المدينة والبوادي أن النبي ﷺ سيحج في هذا العام فمن أرد أن يحج بحج النبي فليأت، فلما أتى الناس معه قال: "خذوا عني مناسككم"⁽³⁾، يعرفهم أجزاء الحج وكيفية الأفعال.

(1) الحشر: 7.

(2) صحيح البخاري - كتاب الأذان، وغيره من مصادر جمهور المسلمين، وبالرغم من أنه لم يرد مسنداً في المصادر الحديثية الشيعية، إلا أنه ورد فيها مرسلًا عن النبي، واستدل به فقهاؤهم بدءاً من الشريف المرتضى والشيخ الطوسي، ومن تأخر عنهم.. وكان شهرته أغنت عن الكلام في سنده.

(3) قال العجلوني في كشف الخفاء، ج 1، ص 380 (خذوا عني مناسككم) رواه مسلم وأبو داود والنسائي عن جابر بلفظ رأيت رسول الله ﷺ يرمي على راحلته يوم النحر، ويقول: "لتأخذوا مناسككم فياني لا أدري لعلي لا أحج بعد حجتي هذه".

وهذا الحديث غير موجود من طرق أصحابنا كما قال المحدث البحراني في الحدائق.. ولكن يكثر الاستدلال به والاستشهاد في كتب الفقه.

هنا يأتي الكلام عن أن حلال محمد حلال إلى يوم القيامة، فالتشريعات العبادية التي بلغها رسول الله ﷺ عن ربه، لا تتغير ولا تتبدل، لا يؤثر فيها الزمان ولا المكان، لا ترتبط بوجود الدولة الإسلامية وعدمها.

2. مقام القضاء بين الناس:

هناك مقام آخر للنبي ﷺ وهو مقام القضاء بين الناس، فنحن نعلم أن رسول الله ﷺ عندما أنشأ ذلك المجتمع سنّ فيه قضاء ليأخذ كل ذي حق حقه، ولقطع المنازعات، وفصل الخصومات. وهناك عدد من القضايا التي أثرت عن رسول الله ﷺ في قضائه، بعضها ضمن الإطار الأول (حلال محمد حلال إلى يوم القيامة)، كما في «يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ»، فإذا جاء أحد لرسول الله في قضية ميراث قضى بينهم على هذا الأساس، وهناك قسم آخر من القضايا ترتبط بالزمان والمكان وأحياناً حتى بالأشخاص المتقاضين. في هذا المقام يكون النبي في صدد حل مشكلة بين اثنين، يدرك أن هناك طرفاً معتدياً وطرفاً معتدى عليه ويحاول أن ينهي هذه المشكلة..

مثلما نقل من قول النبي لشاب جاء ينازع أباه في مقدار من المال بأن يسترجعه، والده، فقال له النبي: "أنت ومالك لأبيك"⁽¹⁾.

(1) نقلها الكليني في الكافي، ج 135/5، عن الإمام الباقر عليه السلام مختصرة، أن رسول الله (صلى) لرجل: "أنت ومالك لأبيك"، ثم قال أبو جعفر عليه السلام: وما أحب له أن يأخذ من مال ابنه إلا ما احتاج إليه مما لا بد منه، إن الله عز وجل لا يحب الفساد. بينما نقل الحادثة العجلوني في كشف الخفاء، ج 1، 208، بنحو أكثر تفصيلاً.. كالتالي:

مثل هذه الحادثة يمر عليها العلماء فيقولون أهما قضية في واقعة، وهي مسألة أخلاقية، وليست حكماً إلهياً دائماً، ولا قاعدة قانونية مستمرة، ولهذا لا يلتزمون بمؤداها فقهاً وقانوناً. فلو استدان الوالد من ولده يجب عليه أن يؤدي دينه..

لكن النبي في ذلك الظرف كان يريد أن ينهي هذا الشجار والتعدي من قبل الولد على حرمة أبيه، فيأتي له بقانون أخلاقي، يقول له كيف تطالب والدك مثلاً بعشرة دنانير وتحتك حرمته

- "أنت ومالك لأبيك" رواه ابن ماجه عن جابر أن رجلاً قال: يا رسول الله إن لي مالاً وولداً وإن أبي يريد أن يجتاح مالي فذكره، ورواه عنه الطبراني في الأوسط والصغير بسند فيه المكندر ضعفوه عن جابر، قال جاء رجل إلى النبي (صلى) فقال: يا رسول الله إن أبي أخذ مالي! فقال النبي (صلى): اذهب فأتني بأبيك! فنزل جبريل على النبي (صلى) فقال: إن الله عز وجل يقرئك السلام ويقول لك: إذا جاءك الشيخ فسله عن شيء قاله في نفسه ما سمعته أذناه! فلما جاء الشيخ قال له النبي (صلى): ما بال ابنك يشكوك تريد أن تأخذ ماله؟ قال: سله يا رسول الله هل أنفقته إلا على إحدى عماته أو حالاته أو على نفسي؟ فقال النبي (صلى): إيه دعنا من هذا أخبرني عن شيء قلته في نفسك ما سمعته أذناك! فقال الشيخ: والله يا رسول الله ما يزال الله يزيدنا بك يقيناً، لقد قلت في نفسي شيئاً ما سمعته أذناي فقال: قل وأنا أسمع فقال: قلت:

غذوتك مولوداً ومنتك يافعاً	تعلى بما أجنبي عليك وتنهل
إذا ليلة ضاقتك بالسقم لم أبت	لسقمك إلا ساهراً أتململ
كأني أنا المطروق دونك بالذي	طرقت به دوبي فعيبي تململ
فلما بلغت السن والغاية التي	إليها مدى ما كنت فيك أو مل
جعلت جزائي غلظة وفضاظة	كأنك أنت المنعم المتفضل
فليتك إذا لم ترع حق أبوتي	فعلت كما الجار المجاور يفعل
فأوليتني حق الجوار فلم تكن	علي. بمال دون مالك تبخل

قال: فحينئذ أخذ النبي (صلى) بتلايب ابنه وقال أنت ومالك لأبيك!

وتصر عليه وتتنقل به محكمة إلى أخرى والحال أن وجودك وأصلك وفرعك كله من بركات والدك، هنا النبي ﷺ كان في صدد حل هذه المشكلة وهذه القضية الخارجية، لا أنه يقرر معنى جديداً أو أن يجعل قانوناً استثنائياً في التملك بحيث تكون أملاك الولد ملكاً لأبيه!

نعم يجب على الولد الغني الإنفاق على الوالد الفقير والأم الفقيرة، وكذلك العكس يجب على الوالد الغني الإنفاق على الولد الفقير. لكن كلاً منهما حر في أملاكه ومسلط عليها.

3. موقع الولاية وإدارة المجتمع:

فـ «النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ...»⁽¹⁾ وبهذا المعنى قد حدد القرآن الأولياء بعد الله سبحانه والنبي، فقال: «إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ»⁽²⁾ هذا موقع ولاية، وإدارة مجتمع، جعلها الله لنبه وللمعصوم من بعده.

الاختلاط الذي يحصل أحياناً بين الروايات.. أن هذه الرواية من أي نوع؟ هل هي في مقام الولاية وإدارة المجتمع أو هي من مقام القضاء فهي قضايا في الغالب لها جانب زمني وظرفي محدود، أو هي من مقام الأحكام الإلهية الكلية والدائمة التي يبلغها النبي عن ربه.

ولتوضيح الفرق نورد بعض الأمثلة:

(1) الأحزاب: 6.

(2) المائدة: 55.

التهديد بإحراق من تأخر عن الجماعة:

يفتي المذهب الحنبلي بوجوب صلاة الجماعة في الأوقات الخمسة⁽¹⁾، ويعتمدون على جملة من الأدلة من بينها ما يروى عن رسول الله ﷺ، أنه قال: "والذي نفسي بيده لقد هممت أن آمر بحطب ليحتطب ثم أمر بالصلاة فيؤذن لها ثم أمر رجلاً فيؤم الناس ثم أخالف إلى رجال لا يشهدون الصلاة فأحرق عليهم بيوتهم" وأنه لو لم تكن واجبة لما هدد بهذا التهديد، إذ المستحب لا عقوبة على تركه!

وهنا يأتي الفرق بين أن ننظر إلى هذه الرواية على أنها كاشفة عن حكم إلهي كلي ودائم، أو أنها نوع من أنواع التدبير الاجتماعي والولائي الذي كان يمارسه النبي في مجتمع المدينة؟ وبالتالي فهو ناظر إلى حالة خاصة تحتاج إلى علاج من هذا النوع؟ حينما نأتي إلى روايات أهل البيت نرى أن هذه الرواية أيضاً موجودة، ولكن بالنظر إلى روايات آخر يتبين أن هذه الرواية ليست

(1) قال عبد الله بن قدامه في كتابه المغني، ج 2، ص 2 - 3: الجماعة واجبة للصلوات الخمس روي نحو ذلك عن ابن مسعود وأبي موسى وبه قال عطاء والأوزاعي وأبو ثور ولم يوجبها مالك والثوري وأبو حنيفة والشافعي لقول النبي (صلى): "تفضل صلاة الجماعة على صلاة الفذ بخمس وعشرين درجة" متفق عليه ولأن النبي (صلى) لم ينكر على اللذين قالوا صلينا في رحالنا ولو كانت واجبة لأنكر عليهما ولأنها لو كانت واجبة في الصلاة لكانت شرطاً لها كالجمعة ولنا قول الله تعالى: ﴿... الآية.

ولو لم تكن واجبة لرخص فيها حالة الخوف ولم يجز الإخلال بواجبات الصلاة من أجلها وروى أبو هريرة أن رسول الله (صلى) قال: "والذي نفسي بيده لقد هممت أن آمر بحطب ليحتطب ثم أمر بالصلاة فيؤذن لها ثم أمر رجلاً فيؤم الناس ثم أخالف إلى رجال لا يشهدون الصلاة فأحرق.. عليهم.. بيوتهم.. انتهى.. ويرى فقهاء الشيعة أن الجماعة مستحبة.

من الأحكام الإلهية وإنما تنتمي إلى التدبير الاجتماعي والولائي
وبعبارة أخرى هذا ليس من القسم الأول وإنما من القسم الثالث.

ومضمون تلك الروايات أن النبي ﷺ كان يلاحظ وجود عدد
من المنافقين يتعمدون في وقت الصلاة أن يجتمعوا في بيوتهم ولا
يخرجوا مع الناس ويتبعوا (غير سبيل المؤمنين) مع كون أماكنهم قريبة
من مسجد الرسول ﷺ، وكان هذا أشبه بمحاولة إضعاف الوجود
الإسلامي، وتوهين الموقع القيادي للنبي، ويشم منه رائحة تأمر سيئ
يُدبر للمجتمع المسلم في المدينة المنورة، لذلك واجه النبي هذا الأمر
بعنف شديد، لأن قضية هذه المجموعة ليست قضية ترك صلاة
الجماعة من حيث عدم الرغبة في ثوابها، وإنما كان وراء الأكمة ما
وراءها، ولذلك ففي الرواية عن الإمام الصادق عليه السلام⁽¹⁾: (كان
رسول الله يسأل عن بعضهم بأسمائهم)، وأنهم هل هم في المدينة أو
خارجها، يأتي للمسجد ويسأل هل فلان موجود في المدينة أم لا، إذا
أجيب بنعم يسأل النبي لماذا لم يأت؟ يوجد هناك رصد لفئة معينة
كانت تتعمد عدم المشاركة مع المسلمين، وربما خططت لأشياء
ضارة بالمجتمع الإسلامي، هذه المجموعة وجه إليها النبي تحذيراً وتهديداً
أن الانقلاب على الوضع الإسلامي من خلال إضعافه بتلك الطريقة،
سيواجه بحزم، أن نجتمع عليهم حطباً ونحرق بائهم. ويصفهم فيما بعد

(1) وسائل الشيعة (آل البيت) - الحر العاملي، ج 8، ص 294؛ محمد بن الحسن
بإسناده عن الحسين بن سعيد، عن النضر، عن عبد الله بن سنان، عن أبي عبد
الله عليه السلام قال: سمعته يقول صلى رسول الله (صلى): الفجر (1) فأقبل بوجهه
على أصحابه فسأل عن أناس يسميهم بأسمائهم. فقال: هل حضروا الصلاة؟
فقالوا: لا يا رسول الله فقال: أغيب هم؟ قالوا: لا، فقال: أما أنه ليس من
صلاة أشد على المنافقين من هذه الصلاة والعشاء، ولو علموا أي فضل فيهما
لأتوهما ولو حبوا.. السند معتبر.

بأنهم المنافقون وأنه ليس أشد عليهم من حضور صلاة الجماعة عشاءً وفجراً!

ونفس الأمر تكرر مع الإمام علي عليه السلام فكان له نفس الموقف⁽¹⁾، مما يعني أن القضية لم تكن في حدود شهود الصلاة لتحصيل الثواب، والامتناع عن ذلك زهداً في الثواب وإنما إضافة إلى ذلك كان هناك قضية أكبر.

ثم لا يساكنوننا، يعني لا يبقوا معنا في المدينة ولا يشاربوننا ولا يؤاكلوننا، نلاحظ أن مثل هذه الرواية تجعل التهديد ينتمي القسم الثالث وهو قسم إدارة المجتمع.

الإشكال الذي حصل هو أن بعض الفقهاء تصوروا أن هذا حكم إلهي كلي ودائم، وأنه لو تأخر شخص اليوم عن صلاة الجماعة فلا بد أن يعاقب وهذا معناه الوجوب العيني في جميع الفرائض.. بينما لو تم التفريق بين المقامين.. لما حكموا بذلك.

جواز الفرار من الوباء:

مثال آخر: ما ذكره بعض فقهاء الجمهور من أن الفرار من الوباء غير جائز، فلو مثلاً حدث وباء كالطاعون هل يجوز أن يفر الإنسان منه ويخرج من بلد الوباء إلى بلد آخر؟ لا يجوز ذلك عند

(1) وسائل الشيعة (آل البيت) - الحر العاملي، ج 5، ص 196؛ عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام أن أمير المؤمنين عليه السلام بلغه أن قوماً لا يحضرون الصلاة في المسجد، فخطب فقال: إن قوماً لا يحضرون الصلاة معنا في مساجدنا فلا يؤاكلونا ولا يشاربوننا ولا يشاورونا ولا يناكحونا ولا يأخذوا من فينا شيئاً، أو يحضروا معنا صلاتنا جماعة، وإني لأوشك أن أمر لهم بنار تشمل في دورهم فأحرق عليهم أو ينتهون، قال: فامتنع المسلمون عن مؤاكلتهم ومشاربتهم ومناكحتهم حتى حضروا الجماعة مع المسلمين.

بعض فقهاء الجمهور⁽¹⁾ ويجوز عند فقهاء الإمامية⁽²⁾.

وموضع الخلاف يبدو أنه يعتمد على أن ما روي عن الرسول ﷺ هل هو حكم دائم، أو هو تدبير في واقعة خاصة؟ فالذي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه تدبير في قضية حربية خاصة، وبالتالي لا يتخذ طابع الشمولية والعموم.

فقد ذكر الشيخ الصدوق رحمه الله في كتابه علل الشرائع رواية عن الصادق عليه السلام عن علي ابن المغيرة قال: (قلت لأبي عبد الله عليه السلام: القوم يكونون في البلد يقع فيها الموت ألهم أن يتحولوا عنها إلى غيرها؟ قال: نعم! قلت: بلغنا أن رسول الله ﷺ عاب قوماً بذلك، فقال أولئك كانوا رتبة بإزاء العدو، فأمرهم رسول الله ﷺ

(1) فقد ذكر الألويسي في تفسيره، ج 28، ص 97 ذلك فقال في ذيل الآية المباركة: «... من الكفر والمعاصي بأن يجازيكم بها، واستشعر غير واحد من الآية ذم الفرار من الطاعون، والكلام في ذلك طويل، فمنهم من حرمه - كابن خزيمة - فإنه ترجم في صحيحه - باب الفرار من الطاعون من الكبائر - وأن الله تعالى يعاقب من وقع منه ذلك ما لم يعف عنه، واستدل بحديث عائشة "الفرار من الطاعون كالفرار من الزحف" رواه الإمام أحمد، والطبراني، وابن عدي، وغيرهم، وسنده حسن. وذكر التاج السبكي أن الأكثر على تحريمه، ومنهم من قال: بكرهته كالإمام مالك، ونقل القاضي عياض. وغيره جواز الخروج عن الأرض التي يقع بها عن جماعة من الصحابة منهم أبو موسى الأشعري.

وقال المبار كفوري في كتابه تحفة الأحوذى، ج 4، ص 150: قلت والحق أن الخروج من أرض وقع فيها الطاعون فراراً منه حرام وقد ألفت في هذه المسألة رسالة سميتها خير الماعون في منع الفرار من الطاعون.

(2) فقد ذكر ذلك السيد الزدي في العروة الوثقى، ج 2، ص 22، ولم يعلق عليه أحد في الحاشية من الفقهاء مما يعني موافقتهم إياه: ويجوز الفرار من الوباء والطاعون، وما في بعض الأخبار من أن الفرار من الطاعون كالفرار من الجهاد مختص بمن كان في ثغر من الثغور لحفظه.

أن يثبتوا في مواضعهم، ولا يتحولوا منه إلى غيره، فلما وقع فيهم الموت تحولوا من ذلك المكان إلى غيره، فكان تحويلهم من ذلك المكان إلى غيره كالفرار من الزحف⁽¹⁾.

لقد كانت القضية قضية خاصة، هناك مواجهة بين فرقة من المسلمين وأخرى من الكفار، فوقع الوباء في تلك المنطقة فأراد بعض هؤلاء المسلمين (الفرقة العسكرية) المرابطة والمحافظة على الثغور أن يهربوا ويتراجعوا، خوفاً من هذا الوباء الذي حدث فحشي رسول الله ﷺ أن يكون ذلك سبباً لاجتياح المشركين للبلد الإسلامي، فقال: إن الفرار من الوباء في هذه الحالة هو كالفرار من الزحف لأنه ينتهي إلى نفس نتيجته وهو تمكين المشركين من بلاد المسلمين.

أين هذا من كونه حكماً شرعياً دائماً بحيث لو اجتاح وباء الطاعون أو الكوليرا أو غيرها بلداً، فإنه لا يجوز لأهله أن يخرجوا عنه بل ينتظروا أن يموتوا واحداً بعد الآخر؟

أخرجوا المشركين من جزيرة العرب:

مثال ثالث: ما ينقل عن رسول الله ﷺ من قوله: "أخرجوا المشركين من جزيرة العرب".. وهذا من الأحاديث التي تعتمد عليها بعض الحركات الإسلامية في عملها المسلح المواجه لبعض أنظمة الحكم في جزيرة العرب، فإنهم ينقمون عليها أنها تترك المشركين من المسيحيين واليهود في هذه البلاد مع أن الرسول يقول: "أخرجوا المشركين من جزيرة العرب!"

(1) الشيخ الصدوق في علل الشرائع، ج 2، ص 521. حدثنا محمد بن موسى بن المتوكل رحمه الله قال حدثنا علي بن الحسين السعد آبادي عن أحمد بن أبي عبد الله عن ابن محبوب عن عاصم بن حميد عن علي بن المغيرة..

ولنا عدة وقفات مع هذه الرواية:

* هذا النص منقول بعدة أنحاء، وليس بنحو واحد فمنه ما روي عن ابن عباس⁽¹⁾ أنه اشتد برسول الله وجعه.. إلى أن قال: (أخرجوا المشركين من جزيرة العرب). وهناك نص آخر وفيه تغيير لفظ المشركين باليهود⁽²⁾، وفي نقل ثالث بهذا النص (أخرجوا اليهود من الحجاز وأخرجوا أهل نجران من جزيرة العرب)⁽³⁾.

والمصدر الأساس فيه هو كتب الحديث السننية بينما لا نجد في كتب الحديث الشيعية أثراً لهذا النص، ومن نقله من مصنفى الشيعة إنما اعتمد على روايته عن كتب الجمهور كالبخاري وغيره.

* يفترض أن الحادثة واحدة وهي التي كانت قرب وفاة رسول الله ﷺ، وأن النقل قد تعدد ولكن الحادثة واحدة. ولذلك فمن الطبيعي إرجاع العبارات إلى معنى واحد.. وحمل التغيير الذي حصل فيها على شيء من الاشتباه والاختلاط عند الرواة.

(1) كما في صحيح البخاري، ج 4، ص 66: سعيد بن جبير سمع ابن عباس رضي الله عنهما يقول: يوم الخميس! وما يوم الخميس؟ ثم بكى حتى بل دمه الحصى. قلت: يا ابن عباس ما يوم الخميس؟ قال: اشتد برسول الله (صلى) وجعه فقال: اثتوني بكتف أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده أبداً فتنزعوا ولا ينبغي عند نبي تنازع.. فقالوا: ماله أهجر؟ استفهموه! فقال ذروني فالذي أنا فيه خير مما تدعوني إليه فأمرهم بثلاث قال: أخرجوا المشركين من جزيرة العرب وأجيزوا الوفد بنحو ما كنت أجيزهم والثالثة إما أن سكت عنها وإما أن قالها فنسيتها قال سفيان: هذا من قول سليمان..

(2) كما في مجمع الزوائد للهيتمي 325/5.

(3) مسند أحمد - الإمام أحمد بن حنبل، ج 1، ص 195؛ عن أبي عبيدة قال آخر: ما تكلم به النبي (صلى): "أخرجوا يهود أهل الحجاز وأهل نجران من جزيرة العرب".

* نحن نعتقد أن هذا الإجراء كان إجراءً إدارياً وولائياً أراد النبي ﷺ أن يقوم به - مع فرض صدور الرواية عنه - غير أن الزمان لم يمهل، فأوصى المسلمين بذلك بعدما لم يمكن أن يعين بشكل رسمي وصيه في تلك الحادثة التي تألم منها ابن عباس وهي حادثة يوم الخميس. فقام بالوصية بشكل عام في هذه القضية حيث المسؤولية ستكون مسؤولية عموم المسلمين، أو لا أقل من حضر مجلسه آنذ وهم كبار الصحابة وأهل الحل والعقد في المجتمع المسلم.

* إن لفظ المشركين قد يطلق ويراد منه الوثنيون والذين ليس لهم رسالة سماوية، وقد يطلق أحياناً في بعض آيات القرآن الكريم ويراد منه ما يشمل أهل الكتاب، ولكن الأكثر في استعمال القرآن الكريم هو الأول. وإلى ذلك أشار آية الله مكارم الشيرازي في تفسيره الأمثل فقال:

مفردة (المشرك) تطلق غالباً في القرآن الكريم على من يعبد الأوثان، ولكن بعض المفسرين ذهب إلى أن المشرك يشمل سائر الكفار كاليهود والنصارى والمجوس (وبشكل عام أهل الكتاب) أيضاً، لأن كل واحدة من هذه الطوائف يعتقد بوجود شريك للباري عز وجل، فالنصارى يعتقدون بالتثليث، والمجوس يذهبون إلى الثنوية وأن رب العالم هو مزدأ وأهريمن، واليهود يرون أن (عزير) ابن الله. ولكن بالرغم من أن هذه الاعتقادات الباطلة موجبة للشرك إلا أن الآيات الشريفة التي تتحدث عن المشركين في مقابل أهل الكتاب ومع الأخذ بنظر الاعتبار أن اليهود والنصارى والمجوس يرتكزون في أساس ديانتهم على النبوات الحقة والكتب السماوية فيتضح أن منظور القرآن الكريم من المشرك هو عباد الوثن. وقد ورد في الحديث النبوي المعروف في ضمن وصايا متعددة "أخرجوا المشركين من

جزيرة العرب" وهو شاهد على هذا المدعى، لأن من المسلم أن أهل الكتاب لم يخرجوا من جزيرة العرب، بل بقوا هناك يعيشون جنباً إلى جنب مع المسلمين بعنوان أقلية دينية، ويلتزمون بما أمر به القرآن الكريم من أداء الجزية إلى المسلمين⁽¹⁾.

فإذن يكون الأمر الصادر بإخراج المشركين من جزيرة العرب غير شامل لأهل الكتاب، بالعنوان الأولي. لما سبق آنفاً.

* على فرض شموله لأهل الكتاب وخصوصاً اليهود أو أهل نجران، فإن ذلك ربما لم يكن لأجل اعتناقهم تلك الديانات وإنما على أثر عدم وفائهم بشروط المواطنة، والتعايش مع المسلمين، فإن بعض الروايات تصرح بأن النبي ﷺ كان قد صالح يهود نجران على إبقائهم فيها بشرط أن لا يتعاملوا بالربا، وقد يكون لأن فيه تهديداً لاقتصاد المسلمين، فاشتراط عليهم لكي يقيهم أن يتركوا التعامل بالربا، فنكثوا ونقضوا هذا العهد، وقد أشار المحقق صاحب الجواهر إلى ذلك فقال: إنما أوصى النبي ﷺ بإخراج أهل نجران من الجزيرة لأنه صالحهم على ترك الربا فنقضوا العهد⁽²⁾.

ونفس الكلام يأتي في موضوع اليهود حيث كانوا يشكلون قوة مالية ضخمة، وكانوا إلى ذلك يتآمرون مع المشركين ضد المسلمين. فمن الطبيعي أن يقدم النبي - وحالة الإسلام لما تزل حالة ناشئة - على تدبير من هذا النوع لكيلا يبقى هؤلاء على سيطرتهم بعد أن نقضوا موآثيقهم، إذا فهم هذا النص بهذه الطريقة يكون ذلك النص محدوداً بتلك الفترة التي كان فيها خطر منهم على وجود الإسلام في

(1) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج 2، 127.

(2) جواهر الكلام - الشيخ الجواهري، ج 21، ص 290.

الجزيرة العربية أما بعد قوة الإسلام أو كما قال أمير المؤمنين (أما الآن وبعد أن ضرب بجرانه واتسع نطاقه) فالأمر يختلف. والأمثلة كثيرة..

الخليفة الثاني وأحكام تدبيرية:

لو أردنا أن نتكلم الآن خارج الإطار الشيعي، فإن من المعروف أن الخليفة الثاني قد منع متعة الحج ومتعة النساء وأضاف الصلاة خير من النوم في الإقامة، وحذف (حي على خير العمل) من الأذان⁽¹⁾. فنقول هنا - تنزلاً -: هل أن هذا المنع حكم إلهي أو أمر تدبيري اجتهد فيه الخليفة الثاني بما رآه في مصلحة المجتمع؟

من الواضح - منها كما في تاريخها - أنها إجراءات تدبيرية، مثلاً أن الخليفة الثاني لما رأى أنه إذا حدث نكاح مؤقت ويخشى أن لا يعرف نسب الأولاد، فقام بمنع ذلك وقد نقل عنه قوله: (لا أوتى برجل نكح امرأة إلى أجل إلا رجمته بالحجارة)⁽²⁾.. ونقول إن هذا ليس حكم إلهي وإنما كان حكماً تدبيرياً للمجتمع في ذلك الوقت، انتهى ذلك الظرف والدواعي التي دعت إليه.. فلماذا يتم التمسك

(1) للتفصيل راجع النص والاجتهاد للسيد عبد الحسين شرف الدين العاملي، المورد 21 - 24.

(2) صحيح مسلم - مسلم النيسابوري، ج 4، ص 38: كان ابن عباس يأمر بالمتعة وكان ابن الزبير ينهى عنها قال: فذكرت ذلك لجابر بن عبد الله فقال: على يدي دار الحديث تمتعنا مع رسول الله (صلى) فلما قام عمر قال: إن الله كان يحل لرسوله ما شاء بما شاء وأن القرآن قد نزل منازل فأتوا الحج والمعرة لله كما أمركم الله وأبوتوا نكاح هذه النساء فلن أوتي برجل نكح امرأة إلى أجل إلا رجمته بالحجارة؛ وحدثني زهير بن حرب حدثنا عفان حدثنا همام حدثنا قتادة بهذا الإسناد وقال في الحديث فافصلوا حجكم من عمرتكم فإنه أتم لحجكم وأتم لعمرتكم.

بهذا المنع والتحریم وكأنه حکم إلهي دائم لا يتغير؟ وهكذا فقد تم حذف حي على خير العمل حتى لا يتكل الناس على الصلاة ويتركوا الجهاد⁽¹⁾! ماذا بعد زمان الجهاد؟ الآن لا يوجد جهاد بالمعنى المصطلح حروب وفتح، فإذا كان هناك مبرر لرفع حي على خير العمل من الأذان في ذلك الوقت أيام الخليفة الثاني فهو غير موجود الآن.. وهكذا.

قضية تحليل الخمس:

ورد في رواياتنا⁽²⁾ أن الإمام الجواد عليه السلام قد حلل الخمس لشيعة في سنة (221) للهجرة. وذلك لظروف معينة أحاطت بهم، مما يعني أن

(1) كما ذكر في كتاب علل الشرائع مروياً عن عكرمة عن ابن عباس، لأي شيء حذف من الأذان حي على خير العمل.. قال..

(2) الحر العاملي، في وسائل الشيعة (آل البيت)، 501/9 بسنده: الشيخ الطوسي عن محمد بن الحسن الصفار، عن أحمد بن محمد وعبد الله بن محمد جميعاً، عن علي بن مهزيار قال: كتب إليه أبو جعفر عليه السلام - وقرأت أنا كتابه إليه في طريق مكة - قال: إن الذي أوجبت في سنتي هذه وهذه سنة عشرين ومائتين فقط لمعنى من المعاني أكره تفسير المعنى كله خوفاً من الانتشار، وسأفسر لك بعضه إن شاء الله إن موالي - أسأل الله صلاحهم - أو بعضهم قصرُوا فيما يجب عليهم، فعلمت ذلك فأحببت أن أظهرهم وأزكيهم بما فعلت في عامي هذا من أمر الخمس (في عامي هذا)، قال الله تعالى: ﴿

﴿

﴾

﴾ ﴿

﴿ ولم أوجب

ذلك عليهم في كل عام، ولا أوجب عليهم إلا الزكاة التي فرضها الله عليهم، وإنما أوجبت عليهم الخمس في سنتي هذه في الذهب والفضة التي قد حال عليهما الحول، ولم أوجب ذلك عليهم في متاع ولا آتية ولا دواب ولا خدم ولا ربح ربحه في تجارة ولا ضيعة إلا ضيعة سأفسر لك أمرها تخفيفاً مني عن موالي ومناً مني عليهم لما يغتال السلطان من أموالهم ولما ينوبهم في ذاتهم..

ذلك كان من جهة ولائيه، لا أنه تغيير للحكم الإلهي الشرعي.

بعض الفقهاء يذكر أن الأئمة أيضاً قبل الإمام الجواد عليه السلام كانوا قد أباحوا الخمس لشيعتهم ضمن ظروف معينة كان يعيشها شيعة أهل البيت ومن هنا فإنه يوجد نصوص تسمى نصوص التحليل أي تحليل الخمس، لكنها ليست حكماً إلهياً دائماً..

يتلخص مما سبق أن من المهم لمن ينظر في روايات المعصومين عليهم السلام أن يميز بين مقامات المعصوم المختلفة وأن هذه الرواية تنتمي إلى أي مقام للمعصوم، للنبي، للإمام، مقام التبليغ للأحكام الإلهية الكلية والدائمة ومن "حلال محمد حلال إلى يوم القيامة".. أو أنها من مقام القضاء ولذلك يعبرون عنها بأنها قضية في واقعة.. ولعل مثل رواية (لو كنت أمر أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها) هي من هذا النوع وأنها جاءت لحل مشكلة.. مثلما لو كنت قاضياً وجاءك رجل وزوجته فرأيت مثلاً أن هذه الزوجة قد تجاوزت الحد، فتبدأ تبين لها حقوق الزوج وأهميته وأنه كذا وكذا... ليس معنى هذا أن الزوجة ليس لها حقوق ولكن هنا في هذا المكان ما دام حدث الاعتداء من طرف الزوجة فلا بد أن تأتي وتعظم حقوق الزوج.

وإذا انعكست الآية وجاءك رجل قد اعتاد ضرب زوجته، فلا شك أنك ستقول له أن الذي يضرب زوجته هو في نار جهنم (ومن مدّ يده إلى زوجته ليضربها فكأنما مدّ يده إلى النار) هنا لا تتكلم عن حقوق الزوج لأنه ليس من الصالح في علاج تلك المشكلة.. المهم أن تمنع الاعتداء من طرف الزوج فلا بد هنا أن تتكلم عن حقوق الزوجة.

وهكذا الحال في مقام الإدارة الاجتماعية والولاية على المجتمع، والخلط بين هذه المقامات يصنع أزمة في فهم النصوص الواردة عن النبي وعن المعصومين عليهم السلام.

عرض الروايات على القرآن والقيم العامة

روي عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام: (إذا ورد عليكم حديث فوجدتم له شاهداً من كتاب الله أو من قول رسول الله ﷺ وإلا فالذي جاءكم به أولى به)⁽¹⁾.

تتناول هذه المقالة لزوم عرض النصوص الواردة عن رسول الله ﷺ وعن المعصومين على كتاب الله، باعتبار أن ذلك أحد نقاط منهج التعامل مع النصوص الحديثية، ونتحدث فيه عن جانبين: الجانب الأول: لزوم العرض على الكتاب والسنة القطعية. والجانب الثاني: لزوم العرض على القيم العامة في الدين.

بالنسبة إلى الأمر الأول: يعتبر الحديث النبوي وعن المعصومين بمثابة الشارح والمفصل والمبين لآيات الكتاب ولا يمكن للشارح أو المبين أو المفصل أن يكون مناقضاً أو مضاداً لما جاء في الكتاب، الفرع ينبغي أن يكون منسجماً مع الأصل والشرح ينبغي أن يكون متلائماً مع المتن وإلا لم يعد ذلك شرحاً ولا تفصيلاً، والقاعدة في هذا أن كل النصوص تقاس بالكتاب وآياته فإن كان عليها شاهد

(1) رواه الشيخ الكليني في الكافي 69/1 عن محمد بن يحيى، عن عبد الله بن محمد، عن علي بن الحكم، عن أبان بن عثمان عن عبد الله بن أبي يعفور، قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن اختلاف الحديث يرويه من نثق به ومنهم من لا نثق به؟ قال:

وكانت تنسجم مع أحكام القرآن وآياته وإلا فإن مثل هذه السنّة لو خالفت آيات الكتاب وأحكامه الكتاب، فهي زخرف، ولم يقله المعصومون.

أيهما يحتاج للآخر:

وينبغي الإشارة إلى أن هناك رأيين في قضية عرض السنّة على الكتاب وحاجة أي منهما للآخر..

التوجه الأول هو ما ذكرناه والذي يذهب إليه شيعة أهل البيت من فقهاءهم ومحدثيهم وأن كل حديث ينبغي أن يعرض على الكتاب فإن خالفه ضرب بذلك الحديث عرض الحائط. ويعتمدون في ذلك على أحاديث كثيرة تبين حاجة الحديث إلى القرآن في لزوم عرضه عليه.. منها:

ما عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: "إن على كل حق حقيقة وعلى كل صواب نوراً فما وافق كتاب الله فخذوه وما خالف كتاب الله فدعوه".

عن أبي عبد الله جعفر بن محمد الصادق عليه السلام قال: خطب النبي ﷺ بمخى فقال: "أيها الناس! ما جاءكم عني يوافق كتاب الله فأنا قلته، وما جاءكم يخالف كتاب الله فلم أقله"⁽¹⁾.

وعن أبي جعفر محمد بن علي الباقر عليه السلام - في حديث - قال: إذا جاءكم عنا حديث فوجدتم عليه شاهداً، أو شاهدين من كتاب الله فخذوا به، وإلا فقفوا عنده، ثم ردوه إلينا، حتى يستبين لكم.

(1) ذكره وما بعده الحر العاملي في وسائل الشيعة (آل البيت) 111/27.

وفي بعض الروايات لزوم العرض على سنّة النبي ﷺ، بالإضافة إلى الكتاب.

وعن أيوب بن الحر قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: كل شيء مردود إلى الكتاب والسنة، وكل حديث لا يوافق كتاب الله فهو زحرف⁽¹⁾.

وعن سدير قال: قال أبو جعفر وأبو عبد الله (عليهما السلام): لا تصدق علينا إلا ما وافق كتاب الله وسنّة نبيه ﷺ.

وعن ابن أبي يعفور قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن اختلاف الحديث يرويه من نثق به ومنهم من لا نثق به قال: إذا ورد عليكم حديث فوجدتم له شاهداً من كتاب الله أو من قول رسول الله ﷺ وإلا فالذي جاءكم به أولى به⁽²⁾.

ومعنى المخالفة هنا أنه يكون بنحو لا يمكن أن ينسجم معه، فيكون مع آيات الكتاب على حد التباين الصريح، والاختلاف الواضح، لا مجال فيه للتفسير أو للتأويل.

والقسم الأكثر من علماء الجمهور أيضاً ذهبوا إلى أن السنّة النبوية تعرض على الكتاب وتُقيّم في أخذها أو ردها بعدم مخالفتها لآياته.

غير أن هناك رأياً آخر ذهب إليه بعض العلماء كما ذكر ذلك في كتاب مقالات الإسلاميين وهو أن السنّة لا تحتاج إلى الكتاب وإنما الكتاب هو الذي يحتاج إلى السنّة، لأن السنّة تنسخ الكتاب دون العكس.

(1) الزحرف: الشيء المموه غير الحقيقي.

(2) جامع أحاديث الشيعة - السيد البروجردي، ج 1، ص 257.

وهذا الكلام بظاهره غير مقبول، نعم لو كان المراد هو أن الكتاب لما كان محتاجاً إلى الشرح والتفصيل، والبيان والتقيد، فهو بهذا الاعتبار محتاج إلى السنّة، فلا بأس به. لكن الكلام هو في مرحلة قبل هذه المرحلة وهي ما إذا كان مضمون الحديث والسنّة غير منسجم، ولا متوافق مع الكتاب، فكيف يمكن قبوله والنظر فيه؟

فقد ذكر ابن أبي يعلى في كتابه طبقات الحنابلة من ضمن الاعتقادات: وأن القرآن أحوج إلى السنّة من السنّة إلى القرآن⁽¹⁾.

وقد فسر أحمد بن حنبل ذلك عندما سئل عن الحديث الذي روى إن السنّة قاضية على الكتاب فقال أحمد: أجسر على هذا أن أقوله ولكن السنّة تفسر الكتاب وتبينه⁽²⁾. وهكذا ما نقله بن قتيبة الدينوري في تأويل مختلف الحديث عن يحيى بن أبي كثير أنه قال: السنّة قاضية على الكتاب وليس الكتاب بقاض على السنّة. أراد أنها مبينة للكتاب منبئة عما أراد الله تعالى فيه⁽³⁾.

إن المسلمين يعتقدون بأن هذا القرآن الذي بين أيدينا هو الذي نزل على رسول الله ﷺ من ربه لم تزد فيه آية ولم ينقص حرفاً، بل تعهد الله تعالى بحفظه فقال: «إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ»⁽⁴⁾، وهو قطعي السند قد وصل إلينا بأفضل ما يمكن من تواتر حيث حفظته الأمة جيلاً بعد جيل، بأفضل مما تحفظ به فضتها وذهبها. ومن يذهب إلى غير هذا من المسلمين - من أي فرقة كان ومهما كانت منزلته العلمية - فهو مردود عليه، ومرفوض منه.

(1) ص 182.

(2) ص 99.

(3) ص 59.

(4) الحجر: 9.

بينما السنّة النبوية تعرضت لكثير من التحريف والكذب قد أخبر عنه رسول الله ﷺ بل يظهر أن الكذب على النبي كان في عهده ولما يرحل عن هذه الدنيا كما يستفاد من كلام أمير المؤمنين علي: ولقد كذب على رسول الله ﷺ على عهده حتى قام خطيباً فقال: (من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار)⁽¹⁾.

وهكذا الحال بالنسبة لأئمة أهل البيت عليهم السلام فقد ابتلوا بعدد من المنحرفين وضعوا على لسانهم روايات مكذوبة. وقد أخبروا عن ذلك أيضاً: فعن الصادق عليه السلام: إنا أهل بيت صادقون لا نخلو من كذاب يكذب علينا ويسقط صدقنا بكذبه علينا عند الناس⁽²⁾.

ولا يكفي النظر السندي في هذه الروايات، فإن من طريقة هؤلاء الكاذبين التدليس، بحيث يخفى في بعض الأحيان افتعالهم ووضعهم للحديث. وهنا لا بد من اللجوء إلى العرض على الكتاب لرؤية ما إذا كان الحديث متوافقاً معه أو لا.. بل لا بد من اللجوء إلى الكتاب حتى في حالة كون الرواية صحيحة السند بحسب موازين علم الرجال، فلا يكفي الصحة بهذا المعنى للأخذ بها، فلو كانت صحيحة بهذا المعنى ولكنها غير منسجمة مع آيات الكتاب وأحكامه فلا يمكن العمل بها، ولعل في الروايات السابقة التي نقلناها عن المعصومين إشارة كافية لهذا الجانب.

ففي رواية ابن أبي يعفور سوى فيها بين من يوثق به ومن لا يوثق به في أن ما جاء به إذا كان عليه شاهد من كتاب الله فيؤخذ وإلا فلا. وهكذا إطلاق بعض الروايات الأخرى.

(1) نهج البلاغة - خطب الإمام علي (ع)، ج 2، ص 188 - 189.

(2) مستدرک الوسائل للمحدث النوري 90/9.

أصول السنّة في القرآن:

والمقصود أن الأصول العامة موجودة في القرآن، وإلا فليس فيه التفصيل الموجود في الروايات.

نورد بعض الأمثلة على أن أئمة أهل البيت عليهم السلام حاولوا أن يعلموا الناس أن أصول السنّة ينبغي أن تكون موجودة في القرآن، ليست تفاصيل كل حديث موجودة في القرآن ولكن الأصول العامة موجودة.

فقد روي⁽¹⁾ عن الإمام الباقر محمد بن علي بن الحسين عليه السلام:
إذا حدثتكم بشيء فاسألوني من كتاب الله، ثم قال في بعض حديثه،
إن رسول الله ﷺ نهي عن القيل والقال، وفساد المال، وكثرة
السؤال! فقيل له: يا ابن رسول الله أين هذا من كتاب الله؟ قال: إن
الله عز وجل يقول: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ
بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ...﴾⁽²⁾ وقال: ﴿وَلَا تُؤْتُوا
السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا...﴾⁽³⁾ وقال: ﴿يَا أَيُّهَا
الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبَدَّ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ...﴾⁽⁴⁾.

أحاديث رؤية الله:

إننا نرى في بعض الأحيان أحاديث قد تكون منقولة في

(1) الكافي - الشيخ الكليني، ج 1، ص 60.

(2) النساء: 114.

(3) النساء: 5.

(4) المائدة: 101.

الصحاح ولكن لا تجد تلاؤماً وانسجاماً بينها وبين آيات القرآن، من الأمثلة على ذلك ما يرويه الجمهور في بعض كتبهم أن رسول الله ﷺ رأى ربه ليلة المعراج وبعضهم يضيف بعين رأسه⁽¹⁾.

وفي روايات أخرى أن هذا الأمر لا يقتصر على رسول الله وإنما أنتم أيضاً يوم القيامة، ترون ربكم لا تضامون في رؤيته كما ترون الهلال فعن قيس عن جرير قال كنا مع النبي ﷺ فنظر إلى القمر ليلة يعنى البدر فقال إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته⁽²⁾.

بل بعضهم ليضيف بأن الله قد وضع يده على كتف النبي وينقلون عن النبي أنه قال!! أحسست برد أنامله بين ثديي؟! ففي مسند أحمد: إن النبي ﷺ قال: "أتاني ربي عز وجل الليلة في أحسن صورة أحسبه يعني في النوم فقال: يا محمد هل تدري فيم يختصم الملاء الأعلى؟ قال: قلت لا، قال: النبي ﷺ، فوضع يده بين كتفي حتى وجدت بردها بين ثديي أو قال نحري فعلمت ما في السماوات وما في الأرض"⁽³⁾ وأصبحت هذه الفكرة من جملة

(1) السيرة الحلبية - الحلبي، ج 2، ص 141: قال الإمام النووي والراجح عند أكثر العلماء أن رسول الله (صلى) رأى ربه بعين رأسه.. وأما رؤيته عز وجل يوم القيامة في الموقف فعامة لكل أحد من الخلق الإنس والجن من الرجال والنساء المؤمن والكافر والملائكة جبريل وغيره.

ونقل السيد العاملي في كتابه الصحيح من سيرة النبي الأعظم، رأيهم وروايتهم في أن النبي (صلى) قد رأى الله حين المعراج بعين رأسه، ورووا ذلك عن ابن عباس. بل لقد حكى النقاش عن أحمد بن حنبل، أنه قال: أنا أقول بحديث ابن عباس: بعينه رآه، رآه، حتى انقطع نفسه، يعني نفس أحمد.. ونقل ذلك عن تاريخ الخميس..

(2) صحيح البخاري - البخاري، ج 1، ص 138 - 139.

(3) مسند أحمد - الإمام أحمد بن حنبل، ج 1، ص 368.

عقائد قسم من المسلمين⁽¹⁾.

لا شك هنا أن الحديث غير مقبول سواء كان رواه ثقات أو لم يكونوا، لأنه يعارض آيات القرآن الكريم، كيف يقول النبي أنه رأى ربه رأي عين وقد قال ربنا في كتابه (لا تدركه الأبصار)؟ كيف ترونه أنتم يوم القيامة، وقد قال الله لموسى: لن تراني كما يخبرنا القرآن الكريم، وهو نفي تأييدي ودائم! كيف ينال مؤمن رؤية الله رؤية بصرية ويحرم منها نبي من أولي العزم؟

وهنا كلام للإمام الرضا علي بن موسى عليه السلام يقول إنك لن تجد إساءة للنبي أكثر من نسبة ذلك له، لأنه سينتهي إلى أحد محذورين، إما أن يكذب النبي في تبليغه عن الله أنه لا تدركه الأبصار، وإما أن يكذب النبي في قوله إنه رآه، وكلا الأمرين إساءة واضحة للنبي.

فعن صفوان بن يحيى، قال: سألتني أبو قرة المحدث أن أدخله علي أبي الحسن الرضا عليه السلام فاستأذنته في ذلك فأذن لي، فدخل عليه فسأله عن الحلال والحرام والأحكام حتى بلغ سؤاله التوحيد، فقال أبو قرة: إنا روينا أن الله عز وجل قسم الرؤية والكلام بين اثنين، فقسم لموسى عليه السلام الكلام ولحمد عليه السلام الرؤية.

فقال أبو الحسن عليه السلام: فمن المبلغ عن عز وجل إلى الثقلين الجن

(1) وقيل فيها الأشعار بل حتى بعض الأشعار التي تقرأ - غفلة في بعض مجالسنا - كما هو الحال في شعر عبد الباقي أفندي العمري وهو من محبي علي وأهل بيته وله شعر فخم فيهم، ولكنه بالنتيجة متأثر ببعض هذه العقائد، فيقول في بعض قصائده في مدح أمير المؤمنين: وأنت أنت الذي حطت به قدم في موضع يده الرحمن قد وضعاً!! يشبه صعود الإمام علي على كتف النبي لإلقاء الأضنام من الكعبة، يقول: أنت حطت بك قدمك على مكان قد وضع الله فيه يده وهو كتف النبي!! وهو كما ترى معنى غير صحيح.

والإنس ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ...﴾⁽¹⁾ ﴿... وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾⁽²⁾ و﴿... لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ...﴾⁽³⁾ أليس محمداً ﷺ قال: بلى؟ قال: فكيف يجيء رجل إلى الخلق جميعاً فيخبرهم أنه جاء من عند الله وأنه يدعوهم إلى الله بأمر الله ويقول: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ...﴾ ﴿... وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ و﴿... لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ...﴾ ثم يقول: أنا رأيته بعيني، وأحطت به علماً وهو على صورة البشر، أما تستحيون؟ ما قدرت الزنادقة أن ترميه بهذا أن يكون يأتي عن الله بشيء، ثم يأتي بخلافه من وجه آخر! قال أبو قرة: فإنه يقول: ﴿وَلَقَدْ رَأَاهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾⁽⁴⁾.

فقال أبو الحسن عليه السلام: إن بعد هذه الآية ما يدل على ما رأى، حيث قال: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾⁽⁵⁾ يقول: ما كذب فؤاد محمد ﷺ ما رأت عيناه، ثم أخبر بما رأى فقال: لقد رأى من آيات ربه الكبرى، فأيات الله عز وجل غير الله: وقد قال: ﴿... وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ فإذا رآته الأبصار فقد أحاطت به العلم ووقعت المعرفة.

فقال أبو قرة فتكذب بالروايات فقال أبو الحسن عليه السلام: إذا كانت الروايات مخالفة للقرآن كذبت بها وما أجمع المسلمون عليه أنه لا يحاط به علم ولا تدركه الأبصار، وليس كمثلها شيء⁽⁶⁾.

(1) الأنعام: 103.

(2) طه: 110.

(3) الشورى: 11.

(4) النجم: 13.

(5) النجم: 11.

(6) التوحيد - الشيخ الصدوق، ص 110 - 112.

هل يورث الأنبياء؟

مثال آخر ما استشهدت به الصديقة فاطمة الزهراء صلوات الله وسلامه عليها في قضية فدك عندما قيل لها بأن هناك حديثاً وهو: "إنا معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه فهو صدقة" أو في نقل آخر فهو لولي الأمر بعدنا.

لم تفعل فاطمة الزهراء عليها السلام شيئاً سوى أنها عرضت هذا الحديث على القرآن، قالت: أفعلى عمد تركتم كتاب الله ونبذتموه وراء ظهوركم، إذ يقول: «وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ...»⁽¹⁾ وفيما اقتص من خبر يحيى وزكريا إذ يقول: «... فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا * يَرْتُئِي وَيَرْتُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا»⁽²⁾ وقال عز وجل: «يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ...»⁽³⁾ وقال تعالى: «... إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ»⁽⁴⁾. وزعمتم أن لا حظ لي ولا إرث من أبي. أفخصكم الله بآية أخرج أبي منها؟ أم تقولون: إن أهل ملتين لا يتوارثان؟ أولست أنا وأبي من أهل ملة واحدة؟ أم أنتم بخصوص القرآن وعمومه أعلم ممن جاء به⁽⁴⁾.

أنت ترى أن عرض الحديث على الكتاب يسقطه عن الاعتبار. فهو يخالف عمومات القرآن في إرث الأولاد من آبائهم، وخصوص آيات آخر في إرث أولاد الأنبياء من آبائهم. فإذا تمت مرحلة المقتضي ففي مرحلة المانع من اختلاف الدين أو غير ذلك لا وجود لمانع!

(1) مريم: 5 - 6.

(2) النساء: 11.

(3) البقرة: 180.

(4) الاحتجاج للطبرسي 1/139.

العرض على القيم العامة في الدين:

جاء الدين الإسلامي بمنظومة تشريعية ومعها منظومة قيمية أخلاقية، وكان الكثير من التشريعات يستقي من تلك القيم.. فقيمة العدالة والتي تبدأ من العدل الإلهي هي مصدر للكثير من الأحكام والتشريعات. وقيمة ارتباط الجزاء بالعمل، أيضاً هي من تلك القيم. وحرمة المسلم في ماله ودمه وعرضه أيضاً تكون منشأ للكثير من الأحكام التفصيلية.. التوحيد إحدى القيم، حرية الإنسان وأنه ليس مجبراً على أعماله جبراً يسلبه الاختيار إحدى القيم، مسؤولية الإنسان تبعاً لذلك، اشتراك الناس في التكليف إلا ما خرج بالدليل، مساواة الناس من حيث الحقوق والواجبات إلا ما اختص به صنف دون صنف.. وقد أكد القرآن الكريم هذه القيم في آيات مختلفة ومتعددة وتحدث عنها المعصومون عليهم السلام، بل قامت تشريعات الدين وتفصيلاته لتدعيمها، فإذا وجدنا رواية تخالف هذه القيم كلاً أو بعضاً مخالفة صريحة ولم يمكن الجمع بينها وبين تلك القيم الثابتة والأحكام الراسخة، ينبغي أن يتوقف أمامه موقف التأمل والمستفهم أو الراد في الأخير..

في المقابل توجد أحاديث تروى عن النبي ﷺ تارة وعن المعصومين أخرى، وربما يكون سندها معتبراً، لكن مع شيء من التأمل تجد أن هذه الأحاديث لا تتفق مع واحدة أو أكثر من القيم في المنظومة الأخلاقية للإسلام..

لن تبلغوا مدّ أحدهم!

وهنا تأتي أهمية العرض على هذه القيم، فإنه يروى عن النبي ﷺ: "لا تسبوا أصحابي فإن أحدكم لو أنفق مثل أحد ذهباً ما بلغ

مُدَّ أَحدهم ولا نصيفه" (1).

عندما تعرض هذا الحديث على القيم العامة ومنها عدم جواز سب المسلم لأن ذلك يخالف احترامه، تجد الأمر طبيعياً، لكن التعليل الذي ينتهي به الحديث يمكن التأمل فيه، فإن من القيم الدينية العامة توافق العمل مع الجزاء وتناسبه، وقد تحدث القرآن الكريم عن ذلك في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾.. وأن الشخص يثاب بحسب عمله لا بحسب صفته، كيف أنها هنا لما وصلت إلى أصحاب النبي تعطلت؟ لا شك أنه لا يصح سبهم، ولكن أن تكسيهم صحة النبي ارتفاعاً على القانون الإلهي والقيم العامة.. هذا غير صحيح. خصوصاً أن الحديث لم يقل بعض أصحابي، وإنما قال أصحابي التي تدل على الاستيعاب والشمول والعموم، أبو سفيان مثلاً من أصحاب رسول الله، هل ينطبق عليه هذا الحديث أو لا ينطبق؟ هل أن أحد المسلمين من التابعين أو من بعدهم في زماننا لو عمل ما عمل حتى لو أنفق مثل جبل أحد ذهباً لم يبلغ معادل مُدَّ أبي سفيان (حوالي 750 غرام) ولا نصيف المد؟

إن قانون الجزاء يقول: لو أن شخصين احتويا على نفس النية، وتصدق أحدهما أكثر مما تصدق الآخر - ولو كان من أصحاب النبي - فإن الأول يحوز على ثواب أكثر! وكون الثاني كان من أصحاب النبي لا يعطي لصدقته قيمة استثنائية!

ولهذا لا يمكن قبول ما قاله ابن حزم في المحلى مثلاً: من أن نصف مد شعير يتصدق به أحدهم يفضل جميع أعمال أحدنا لو عمر مائة سنة، لأن نصف مد أحدهم أفضل من جبل أحد ذهباً ننفقه نحن

(1) مسند أحمد 11/3.

في وجوه البر، وما نعلم أحداً ينفق في البر زنة حجر ضخمة من حجارة أحد فكيف الجبل كله⁽¹⁾.

وهكذا ما ينقل في بعض كتبنا من روايات تشير إلى نحو من الارتفاع والغلو في حق بعض المعصومين، فإنها مع عرضها على الكتاب وعلى الأصول الدينية الثابتة لا تلبث أن تتساقط. مثلما يقال أن علياً عليه السلام قال: أنا الأول أنا الآخر أنا الظاهر أنا الباطن أنا الذي سيرت سفينة نوح أنا كذا أنا كذا...، بعض هذه لها توجيه وتأويل لو صحت، مثل أنا أول من أسلم وآخر الناس عهداً برسول الله، إذا كان يمكن توجيهها بهذا النحو فهو وإلا فإنها ترفض، وهي زخرف، وهي مما لم يقله الإمام عليه السلام.

غيبة المسلمين المخالفين في المذهب:

هناك بعض الروايات المنقولة عن الأئمة عليهم السلام تتحدث عن جواز غيبة المسلم المخالف في المذهب وجاء بعض الفقهاء ليحلوا التعارض بينها وبين القرآن الكريم ﴿... وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ...﴾⁽²⁾ وما ينبغي من المحافظة على حقوق المسلمين. وسلكوا في ذلك مسالك متعددة، فعن المحقق الأردبيلي⁽³⁾ رحمه الله (والظاهر أن عموم أدلة تحريم الغيبة

(1) المحلى - ابن حزم، ج 4، ص 42.

(2) الحجرات: 12.

(3) ذكره المحدث الشيخ عباس القمي في كتابه الكنى والألقاب فقال: "المولى الأجل العالم الرباني والمحقق الفقيه الصمداني مولانا أحمد بن محمد الأردبيلي النجفي، أمره في الثقة والجلالة والفضل والنبالة والزهد والديانة والورع والأمانة أشهر من أن يحيط به قلم أو يحويه رقم، كان متكلماً فقيهاً، عظيم الشأن جليل القدر رفيع المنزل أروع أهل زمانه وأعبدتهم وأتقاهم، وكفى في

من الكتاب والسنة يشمل المؤمنين وغيرهم، فإن قوله تعالى: ﴿... وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا...﴾⁽¹⁾ إما للمكلفين كلهم، أو المسلمين فقط، لجواز غيبة الكافر ولقوله تعالى بعده: ﴿... لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا...﴾ وكذا الأخبار فإن أكثرها بلفظ الناس أو المسلم. مثل ما روي في الفقيه: (من اغتاب امرءً مسلماً بطل صومه ونقض وضوئه وجاء يوم القيامة يفوح من فيه رائحة أنتن من الجيفة يتأذى به أهل الموقف، وإن مات قبل أن يتوب مات مستحلاً لما حرم الله تعالى، ألا من سمع فاحشة فأفشاها فهو كالذي أتاها، ومن اصطنع إلى أخيه معروفاً فامتن به أحبط الله عمله وأثبت وزره ولم يشكر له سعيه). وقال (ره) في رسالة الغيبة: (قال النبي ﷺ: "كل المسلم على المسلم حرام، دمه وماله وعرضه، والغيبة تناول العرض"، وقد جمع بينها وبين الدم والمال وقال ﷺ: "لا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا يفتب بعضكم بعضاً، وكونوا عباد الله إخواناً". وعن أنس قال: قال البراء: خطبنا رسول الله ﷺ حتى أسمع العواتق في بيوتها، فقال: "يا معشر من آمن بلسانه ولم يؤمن بقلبه لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم فإنه من تتبع عورة أخيه تتبع الله عورته، ومن يتبع الله عورته يفضحه في جوف

ذلك ما قال العلامة المجلسي (ره): والحقق الأردبيلي في الورع والتقوى والزهد والفضل بلغ الغاية القصوى، ولم أسمع بمثله في المتقدمين والمتأخرين جمع الله بينه وبين الأئمة الطاهرين.. انتهى.

توفي سنة 993هـ، وكان من أعيان تلامذته صاحب مدارك الأحكام السيد محمد العاملي، وصاحب المعالم والشيخ عبد الله التستري، وكان يتميز في الجانب العلمي بالجرأة والتجديد، وتحقيق الكثير من المباني بعد التشكيك في ما هو مشهور، كما يلاحظ الناظر إلى كتابه مجمع الفائدة والبرهان. بنفس المقدار الذي كان يعرف به بالقداسة والاحتياط والزهد في الجانب العملي والأخلاقي.

(1) الحجرات: 12.

بيته" وغير ذلك. وبالجملة: عموم أدلة الغيبة وخصوص ذكر المسلم يدل على التحريم مطلقاً، وأن عرض المسلم كدمه وماله، فكما لا يجوز أخذ مال المخالف وقتله لا يجوز تناول عرضه الذي هو الغيبة¹.

وإلى رأي المحقق الأردبيلي المتوفى سنة 993هـ، المخالف لما عليه جملة من العلماء الذين التزموا بمفاد تلك الروايات، ذهب بعض الفقهاء المعاصرين كالشيخ حسين علي المنتظري الذي قال: إن حرمة السب والغيبة، والتي تمثل انتهاكاً للحقوق المعنوية خاصة بالمؤمن فقط، فيقول: إن ظلم الناس غير جائز بحكم العقل وبحكم الكتاب والسنة أيضاً، نحن نعتقد أن القرآن إذ يقول: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ...﴾ فهو يقصد أن بني آدم مكرمون لأنهم بنو آدم. فحينما يقال حقوق الإنسان، معنى ذلك أن للإنسان شرفه وكرامته بما هو إنسان حتى لو كان كافراً، لأن الإنسان محترم بذاته عند الله وهذا صريح معنى الآية، ويقول علي في عهده لمالك الأشر: "الناس صنفان: إما أخ لك في الدين، أو نظير لك في الخلق" وبالتالي فإن للإنسان حرمة بما هو إنسان. إن السب حرام وعلى المؤمن أشد حرمة، ربما اعتبروا روايات تحريم السب خاصة بالمؤمنين لأن ذلك هو القدر المتيقن. إن تشديد الروايات على المؤمن ربما كان لإثارة المشاعر، حيث يقال: إن هذا الشخص مؤمن ومقتضى ذلك أن بعض التهم لا تنطبق عليه.

وفي حرمة السب يمكن كذلك اعتماد الآية: ﴿... وَلَا تَنَابَرُوا بِالْأَلْقَابِ...﴾⁽²⁾، وليس فيها قيد المؤمن والمسلم. يقول الله إنه يكره اختلاق الألقاب السيئة. ويقول أيضاً: ﴿... لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ...﴾

(1) مجمع الفائدة - المحقق الأردبيلي، ج 78/8.

(2) الحجرات: 11.

ولا يقيد ذلك باعتناقهم الإسلام، لأن الله أراد أساساً أن تكون العلاقات الاجتماعية سليمة ولا يخاطب الناس بعضهم بعضاً بالسوء، إنه حكم يشمل غير المسلمين أيضاً. السب مذموم عند الله في نفسه، سواء كان ضد مؤمن أو ضد غير المؤمن⁽¹⁾.

وكذلك كان رأي الشيخ الصانعي الذي قال: قد ذكرت في بحث الغيبة أنها لا تجوز بتاتاً على خلاف بعض الفقهاء الذين قالوا بجواز غيبة غير الشيعي وأنه لا يوجد لنا دليل على حرمتها. وقد ذكرت في المكاسب المحرمة عدم جواز غيبة أي أحد، الغيبة بمعنى الانتقاد الناشئ من الحسد محرمة، أما إذا أظهرت مظلوميّتي أو انتقدت من يرتكب الأخطاء في المجتمع فهذا ليس بغيبة وليس محرماً، والغيبة المحرمة هي الغيبة الناشئة عن الحسد، وهناك موارد لاستثناء الغيبة أشار إليها الشهيد الثاني في رسالته وأنا لا أعتبرها من استثناءات الغيبة، فما ذكره من موارد تختلف عن الغيبة.

إنّ المرحوم المحقق الداماد كان يقول: يعتقد أبي أن روايات الغيبة كانت تخصُّ بني أمية وجاءت بعد واقعة كربلاء؛ لأن جنایات بني أمية كانت كثيرة، وهي لا تعد غيبة بل تظُّلماً⁽²⁾.

علم الأئمة بالغيب

ما يظهر منه في بعض الروايات أن الأئمة يعلمون الغيب بالاستقلال، ظاهرها هكذا لكن يكذبها أن الله سبحانه وتعالى هو لا سواه عنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي

(1) نقل ذلك في موقعه الإلكتروني عنه الشيخ حسن الصفار.

(2) عن موقعه على شبكة الإنترنت.

السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْعَيْبِ إِلَّا اللَّهَ...»⁽¹⁾ نعم تعليم من الله لبعض أوليائه لا مانع منه فإن الله ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ فَإِنَّهُ يَسْأَلُكَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾⁽²⁾. أو كما أجاب أمير المؤمنين عليه السلام لمن قال له (أعطيت علم الغيب): ليس هو بعلم غيب وإنما هو تعلم من ذي علم.

المرأة شر؟

كذلك ما يروى عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: المرأة شر كلها وشر منها أنه لا بد منها!!

عندما تتأمل في هذا القول لا بد أن تتوقف أولاً لتتساءل هل أن الله سبحانه وتعالى قد خلق شراً مطلقاً؟ ليس فيه جهة خير أصلاً؟ بل وحتى جهة الخير وهي الحاجة إليها للتناسل هي أيضاً تكون أكثر (شرية) وسوءاً من المرأة الشر نفسها؟ ما هو الذنب الذي ارتكبه قبل أن تخلق! لكي تخلق شراً مطلقاً؟

عندما تعرض هذه الرواية أولاً على القرآن الكريم تجد فيه المساواة في التكليف والمنزلة والأجر، فكيف تكون في هذه الرواية شراً وفي القرآن غير ذلك؟

ماذا يقول القرآن: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ...﴾⁽³⁾ ويقول:

(1) النمل: 65.

(2) الجن: 26 - 27.

(3) آل عمران: 195.

﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾⁽¹⁾ ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾⁽²⁾ .. تعال واعرضها على السنّة الثابتة والقيم الأصيلة.. (المرأة ريحانة وليست بقهرمانه) اعرضها على (نعم الولد البنات) و(البنات حسنات والحسنات تثاب عليهن).

فإن أمكن توجيه الرواية المذكورة بنحو يتوافق مع هذه الأصول القرآنية والأخلاقية، وإلا فلا يمكن قبولها. فإن القرآن قد أعلى منازل النساء حتى ضرب منهن الأمثال للنساء والرجال على السواء ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةً فَرِعُونَ...﴾⁽³⁾.

كيف تكون شراً كلها! مع وجود هذا العدد الهائل من النساء الفضليات من آل بيت رسول الله من الصحابيات ومن العاملات والمؤمنات والمتفقهات في الدين على مرّ التاريخ؟ واستثناء هذا العدد ينتهي إلى استثناء الأكثر وهو قبيح ومستهجن!

شاوروهـن ثم خالفوهـن:

هناك رواية أخرى تروى عن الإمام أيضاً وهي (شاوروهـن ثم خالفوهـن) ونحن نتساءل هنا هل هذا مطابق لما أمر به من العشرة الحسنة، التي أمر بها القرآن وهي أساس الحياة الزوجية المستقرة فهو

(1) النساء: 124.

(2) النحل: 97.

(3) التحريم: 11.

يقول لنا من جهة: «... وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ...»⁽¹⁾ لكن من جهة أخرى تقول الرواية أنك في الوقت الذي تريد مشاورتها تعمد مخالفتها هل هذه عشرة بمعروف!!

القرآن الكريم ينقل لنا آراء نساء لم يكن مؤمنات، كانت خيراً من آراء الرجال في مجتمعهن وأنتجت إيمان مجتمع كامل، وهي قضية سبأ وبلقيس.

ويوجه القرآن الكريم إلى أن الزوجين ينبغي أن يتشاورا في أمور البيت والأطفال، ومن الطبيعي أنه بقصد الوصول إلى تفاهم مشترك، ونتيجة طيبة «... فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا...»⁽²⁾ ووجدنا أن النبي ﷺ قد استشار بعض زوجاته وعمل على طبق مشورتهم، كما يذكر ذلك في قضية صلح الحديبية، واستشارته لزوجته أم سلمة وعمله بذلك⁽³⁾.

(1) النساء: 19.

(2) البقرة: 233.

(3) مراجعة هذا العنوان وسابقه بالتفصيل يمكن مراجعة مقدمة كتاب (في رحاب الإمام علي) محاولة لفهم أحاديث في شأن المرأة.

مركز آفاق للدراسات والأبحاث

مؤسسة ثقافية تعنى بشؤون التجديد الثقافي وقيم الحوار والتسامح وقضايا الحرية والإصلاح، وتعمل على تنمية الاهتمام بالجوانب الثقافية والمعرفية.

وتتوسل في سبيل تحقيق ذلك بالخطوات التالية:

1. تزويد الساحة بكتابات ومؤلفات جادة حول قيم التعددية والإصلاح والعيش المشترك ومؤسسات المجتمع المدني والقبول بالآخر.
2. التواصل المعرفي والثقافي مع الثقافات الإنسانية والمكاسب الحضارية.
3. تفكيك الأصول الفكرية والأسس الثقافية لظواهر الاستبداد والاستفراد بالرأي والتعصب والغلو، وإرساء معالم الاعتدال والشورى والتداول والحرريات العامة.
4. المساهمة عبر وسائل التوعية والتنقيف في مشروعات التنمية الثقافية في المجتمع.

لمراسلة المركز : aafaq2006@maktoob.com

